خليل عبد الكريم

مجتمع يثرب

العلاقة بين الرجل و المرأة في العهدين المحمدي والخليفي

نساؤكم
حرث لكم
فأتوا حرثكم
أنّى شئتم

الطبعة الثانية

سينا للنشر
القاهرة

مؤسسة الانتشار العربي
بيروت

مجتمع يثرب

خليل عبد الكريم

العلاقة بين الرجل والمرأة
في العهدين المحمدي والخليفي

مجتمع يثرب

سينا للنشر
القاهرة

مؤسسة الانتشار العربي
بيروت

الغلاف بريشة إيناس حسني

«نِسَآؤُكُم حَرثٌ لَكُم فَأتُوا حَرثَكُم أنّى شِئتُم»

آية الغلاف من سورة البقرة رقم ٢٢٢

مؤسسة الانتشار العربي

ص.ب: ١١٣/٥٧٥٢

بيروت ـ لبنان

سينا للنشر

١٨ ش ضريح سعد القصر العيني،

القاهرة، جمهورية مصر العربية

الطبعة الأولى ١٩٩٧

الطبعة الثانية: أيلول/ سبتمبر ١٩٩٧

محتويات الكتاب

مقدمة

فى المجتمع المتحضر العلاقة بين طرفى النوع الإنسانى هى علاقة بين رجل وامرأة أما فى المجتمع البدائى فهى دافع بيولوجى بين فحل وموطوءة وفيه تجد مرادفات كثيرة للملامسة بينهما تشعرك أنها تشغل حيزاً وسيعاً من تفكيرهم .أما إذا كان المجتمع بدائياً وذكورياً معاً فسوف تجد أن تلك المترادفات عبّرت عن علو مكانة الرجل - نقصد العلو المادى - عند التماس ولا تكتفى بأن تموضع الأنثى فى المكان الأسفل بل إنها توحى بالتسوية بين الأنثى والدابة وذلك يتضح بجلاء فى كلمات مثل : الركوب والامتطاء والاعتلاء والوطء .

***

وعلم الاجتماع يؤكد لنا أن تغيير أحوال أى مجتمع لا يتم بتأثير النصوص مهما كان شأوها من البلاغة والإعجاز ولكن بتغيير ظروفه المادية ، وليس معنى ذلك إنكار أى دور للنصوص فى عملية التطوير الاجتماعى ولكن : يعنى أنها تأتى مصلّية [1] - كما أنها تحتاج إلى وقت طويل لتؤتى ثمارها خاصة إذا قصد منها أن تقلع عادات وأنساق اجتماعية ذات جذور غوائر وقواعد رواسخ وأصول ثوابت فى أرض المجتمع ويزداد الأمر تعقيداً إذا كانت قد استمرت مئات السنين -

(١) فى (المعجم الوجيز) لمجمع اللغة العربية / صلّى الفرس فى السباق : جاء مصلّياً وهو الثانى السباق .

ويبلغ الأمر تخوم اليأس إذا كانت ترضى كبرياء الرجل وتشبع غروره وتروى ظمأه الدائم لـ الخنزوانة(٢) .

***

والمجتمع البدائى مليط(٣) من الأنشطة الرياضية والفنية والأدبية التى تشغل أوقات فراغ أعضائه ومن ثم لا يجدون أمامهم منفذاً لتصريف الطاقات الحيوية لديهم إلا فى التماس بين طرفيه يتساوى فى ذلك الذكر والأنثى ومن ثم يغدو هذا الفعل طقساً لابد من مباشرته يومياً وإذا أغلقت المنافذ المشروعة سعى الطرفان إلى ممارسته عبر العلاقات غير المشروعة وربما كان السعى من ناحية الأنثى أكثر حثاً لأن وقت الفراغ لديها أعرض .

***

والأنثى فى المجتمع البدائى الذكورى لطول العهد ومع مرور الزمن تستعذب سيادة الرجل عليها وترى فى اعتلائه وركوبه وامتطائه لها أموراً طبيعية ثم تتحول إلى حقوق تجهد جهداً شديداً فى الحصول عليها وتتفنن فى طرائق الوصول إليها فإذا لم تجدها فى الضوء عثرت عليها فى الظلام وإذا لم تطفىء عطشها فى العلن فعلت ذلك فى السر وإذا لم تتحصل على بغيتها لدى البعل تحصلت عليها من الخدين .

وهى بذلك تضرب عصفورين بحجر واحد الأول إشباع غريزتها الملتهبة دائماً والآخر أن تثبت لنفسها أنها أنثى بحق فى مجتمع ينقسم إلى فحل ومواطؤة وتغدو عملية التماهى بين قطبيه ميزاناً لقدر كل منهما فيه فكلما كان الذكر ظاهر الفحالة كبر فى أعين الجميع وبالمثل كلما كانت الأنثى صالحة للتموضع أسفل الفحل عد

(٢) الخنزوانة : هى أن يشمخ بأنفه من الكبر وفتح منخره ولهذا يقال (فى أنفه خنزوانة) - من (كتاب الفروق) لـ أبى هلال العسكرى - تحقيق د/ أحمد سليم الحمصى ص ٢٧٣ - الطبعة الأولى ١٩٩٤ - ١٤١٥ هـ - جروس برس - طرابلس / لبنان .

(٣) المليط والأملط من لا شعر له - من القاموس المحيط (لـ الفيروزآبادى) .

ذلك دليلاً ساطعاً على فعاليتها فى المجتمع ، ولذلك كان من شارات الشرف لدى الرجال قبل الإسلام أن تكون (تحته) عشر نسوان ورأينا من الإناث من خَمّسة أى استهلكت خمس فحول ومنذ قديم حقّ الرجل ضعف حق الأنثى .

* * *

ولا ينتطح عنزان فى أن طلاقة الجو وحرارة الطقس تثيران غريزة التماس بين الرجل والمرأة ، لذلك نجد هذه الغريزة فى البلاد الباردة فاترة فى حين أنها فى الأقاليم الحارة مشبوبة مشتعلة ومتوقدة - وليس مصادفة أن البلاد ذات الكثافة السكانية الرهيبة تمتاز بحرارة الجو فى حين أن معدلات الولادة منخفضة فى الأصقاع الباردة .

* * *

تلك كانت الركائز التى توكأنا عليها فى هذه الدراسة عن العلاقة بين الرجل والمرأة فى مجتمع المدينة / أثرب إبّان زمن محمد وعهود خلفائه الأربعة ، وفى إعتقادنا أنه مجتمع شديد الخطر (القدْر) بالغ الأهمية من الضرورى بحثه من أقطاره كافةً وشتى مناحيه لفهم كثير من الأمور : تتربع على رأسها (النصوص) حتى يتسنى تأويلها التأويل الأمثل وتفسيرها التفسير الأميز لأنها انبثقت فى حناياه وارتبطت بأوضاعه وتشابكت مع ظروفه واتصلت بموجباته وتعلقت بأحواله وتوثقت باكراهاته ، ومن ثم وترتيباً على ذلك ونتيجة له حملت بصماته والحق أن عجبى لا ينقضى ودهشتى لا تنفذ وحيرتى ممتدة ممن يعرضون عن التفرّس فى ذلك المجتمع والتحديق فيه وتمحيصه وتأمله وتفليّته[٤] . فى دقيقه وعظيمه فى صغيره وكبيره فى نحيفه وغليظه فى سمينه وهزيله خاصة من جانب الذين ينادون بـ (تاريخية النصوص) وبلزوم ربطها بأسباب نزولها ومناسبات ورودها لأنها تغدو دعوى بلا دليل كامل وقضية بلا حجة مقنعة وإدعاء بلا برهانٍ دامغ . . إلخ .

ولكن عندما نضع ذلك المجتمع تحت المجهر ونسلّط الأضواء الكاشفة عليه ونبرزه ونقدمه كما رسمته كتب التراث ذاتها نكون بذلك قدمنا دلائل الثبوت على

(٤) فى المعجم الوسيط لـ مجمع اللغة العربية : افتلى القوم : نظر إليهم متأملاً .

أفكارنا وطروحاتنا وساعتها سوف ينقمع المناوىء وينخنس المعارض ويتوارى المشاكس وينكسف المعاند .

***

العلاقة بين الرجل والمرأة فى مجتمع المدينة / أثرب إبّان حياة محمد وزمن خلفائه الأربعة من أهم معالم هذا المجمع الذى بمعرفة أبنائه تحققت الثورة التى فجرّها محمد فى القرن السابع الميلادى فى منطقة الحجاز والتى تعد من أخطر الثورات التى شهدتها الإنسانية منذ العصور الوسطى .

وهو المجتمع الذى موضع تجربة تلك الثورة المظفرة وشيئّها والذى يعتبره البعض النموذج الأمثل والوحيد الذى شهده التاريخ منذ بدايته حتي يرث الله الأرض وينادى بأن تحذو المجتمعات كلها حذوه وتسير على منواله وتقتفى خطواته . . . إلخ .

ونحن لا نصادر حق أى واحد فى أن يعتقد ما يشاء وأن يطالب - بالحسنى - بما يريد إنما ندعو ونلح أن تجىء معرفته بما يروّجه صحيحة وقائمة على أسس موضوعية خالية من شوائب الهوى والتحيز .

وهذا الكتاب يضىء جانباً هاماً في ذاك المجتمع :

العلاقة بين الرجل والمرأة - التى هى بلا مراء فاتحة معايير تقييم أى مجتمع ورأس حيثيات الحكم عليه .

أسسناه على أوثق المصادر التى تلقتها الأمة بالقبول بل التجلة والتقدير الذى يبلغ فى حق بعضها رتبة التقديس - (مثل كتب الصحاح الستة) .

فكل خبر أو واقعة وردت بين ثناياه أتبعناها بمصدرها بمنتهى الدقة لكى نقطع السبيل على أى خصومة باطلة .

بيد أنه إذا دُهش القارىء أو صُدم مما تحفل به صفحاته من نوازل وأحداث لم يتعود على مطالعتها فى كتابات التبجيل والتعظيم والتفخيم التى ولّفها الكثيرون ومن بينهم أصحاب أسماء لوامع لها رنين صاخب ودوى زاعق فالتبعة تقع عليهم

وحدهم أما نحن فقد التزمنا المنهج العلمى الصارم الذى نحّى عنه جانباً عوارض العاطفة والتعصب .

* * *

بعد أن يفرغ القارىء من مطالعة الكتاب - والتى نرجو أن تكون متأنية وغير عجلى وأن يولى ما بين سطوره ومضمراته قدراً وفيراً من إهتمامه - سيبين له على الفور لا على التراخى أن الكتاب يساعده على إستيعاب كثير من (النصوص) التى تمحورت على المرأة أو تناولت الرابطة بينها وبين الرجل أو حتى حوّمت حولهما فى كل الأصعدة بلا إستثناء .

إذ أن المطالعة تعطيه فرشة وتمنحه خلفية هو فى مسيس الإحتياج إليهما لفهم (النصوص) الذى خاطبت أبناء مجتمع عاشوا فى القرون الوسطى فى منطقة مغايرة تماماً للمنطقة التى يعيش فيها القارىء .

وفى مذهبنا أنه يكفى للتصور وبالتالى للإقتناع .

ولنضرب مثلاً توضيحياً : عندما يصف شخص شخصاً آخر لثالث فمهما كان وصافاً دقيقاً . . . . إلخ .

فإن التصور الذى يأخذه الثانى عن الثالث لا يقاس بما لو قدم له شريط فيديو يعرض أحوال الأخير . كذلك عندما نقول إن مجتمع المدينة/ أثرب فى تلك الفترة مباين لمجتمعنا من كل المناحى فهذا القول يظل ناقصاً وقاصراً ومبهماً يحوطه الغموض ويلفه الضباب وتشمله العتمة ويعوزه التوضيح ويفتقر إلى البيان ويحتاج إلى الإظهار بخلاف ما لو أثبتنا أن نسوان ذلك المجتمع كن يحتلمن ويصرّحن بذلك وكانت الواحدة منهن تملأ الدنيا صخباً لأنها اكتشفت أن زوجها عنّين لا طاقة له على ركوبها - ووُجد فى ذلك المجتمع إغتصاب ، وأن الصاحب الذى أستأمنه أخوه على زوجه هجم عليها ليعافسها ، وأن البائع ينتهز الفرصة المواتية ليحتضن الزبونة المليحة ، والخاطب لا يرى حرجاً فى أن يتحسس ساقىّ مخطوبته ليتأكد أنها وعاء طيب للمفاخذة ، أو التخبؤ لرؤية الأجزاء المستورة منها لمعرفة مدى صلاحيتها للوطء ومن الممكن بصبصة الفتاة الحسناء فى أقدس المشاعر والأزمنة ، أو بصبصة

نسوة الآخرين فى أثناء الفتح الأعظم أو التفرّس فى سوقهن (جمع ساق) فى عز إستعار معركة مصيرية ، أو مجامعة الزوجة رغم الأيمان المغلّظة بعدم الإقدام على ذلك أو فى أوقات يحرم فيها الفعل أو الإختلاء بزوجة آخر ورؤيتها عارية ومباشرتها (دون المجامعة) بشهادة شهود عدول ومع ذلك يعفو الحاكم عنهما ولا حتى كلمة تأنيب مع أن الفاعل حصّن (تزوج محصنة) عشرات الزوجات وعندما قام بعمله المنكر كان والياً على أحد الأمصار وآخر يدخل بعذراء فيجدها مفضوضة وغيره يتزوج بكراً فتلد بعد أربعة أشهر ، وكانت هناك مشكلة حارقة هى مشكلة (المغيّبات) وهن الزوجات اللاتى يخرج أزواجهن للغزو ، والفتى الوسيم القسيم الذى تتعشقه نسوة يثرب وتتمناه إحداهن وتنشد شعراً بصوت مرتفع : ليتها وذاك الشاب المليح يضمهما سرير وبينهما زجاجة خمر معتق فيسمعها الخليفة فيأمر بحلق شعر الفتى الجميل حلاوة فيتضاعف تولّه الأثربيات به فلا يجد الحاكم حلاً سوى نفيه وتغريبه عن القرية كلها .

وحليف أحد البطون يتبع نساء ذلك الحى خاصة زوجات الشيوخ أو المرضى الضعاف حتى يضبط مرتين وفى كل مرة يأتى المولود شبيهاً له ومخالفاً لسحنة الزوج - فيتلاعن الزوجان ولا تُمس شعرة فيه .

هذه مجرد أمثلة وغيرها العشرات ولكل خبر سنده ولكل واقعة مصدرها . . . وهى مصادر لا ترقى إليها ذرة من شك ولا يمارى فيها إلا المعاند اللجوج .

نعود إلى سياقة الحديث - الذى قطعته ضرورة ضرب الأمثال :-

عندما يحيط القارىء بذلك كله علماً يغدو تصوره عن ذاك المجتمع مكتملاً وواضحاً كأنما عاش بين جنباته وخالط أفراده وقضى معهم حياته وعاين بباصرته أحوالهم وبذلك تتحقق عدة مقاصد حيوية أهمها ثلاثة :

الأول : ليحكم بنفسه على ذلك المجتمع : هل هو مثالى ونموذجى لم تر له البشرية شبيهاً ولا نظيراً منذ دبت الحياة على وجه الأرض وحتى قيام الساعة أم لا .

الثانى : تقديم العون الحقيقى لفهم النصوص فهما سديداً فعندما يطالع مثلاً الوقائع الخاصة باللعان يستوعب المبنى والمعنى ولا يكتفى بالأول كما يفعل الكثيرون

- ولا مشاحة أنه عندما ما لا يقرأها يأتي تصوره لِ (اللعان) خاطئاً .

الثالث : وهو مترتب على المقصد الثاني وهو ترسيخ قاعدة (تاريخية النصوص) وربطها بأسباب نزولها ومناسبات ورودها وإرجاعها إلى ظروف منشأها .

وبذلك نكون قد قدمنا الحجج البواهر والبراهين السواطع والأدلة الرواسخ على صحتها وثبوتها وهو ما كانت تفتقر إليه حتى الآن .

فإذا وفقنا إلى الوصول لهذه القصود يكون الكتاب قد أتى بثمرته المرجوة .

خليل عبد الكريم

١

مجتمع يثرب قبل الإسلام

كان مجتمع يثرب قبل الإسلام مجتمعاً أميا ساذجاً ونعنى الوصف اللغوى لا الاصطلاحى[١] ، ولم تكن فيه مجالات ثقافية أو فنية تثرى الوجدان أو تصقله - باستثناء دائرة الشعر وهى ضيقة ومحدودة - كمجتمع مصر القديمة إذ كان الناس فيه مشغولين بأمور متنوعة منها :

النشاط الدينى البالغ التعقيد فى المعابد وساحاتها ، وفنون العمارة والنحت والتصوير وإقامة التماثيل والمسلات واللوحات الجدارية ، وفى العلوم وأبرزها : الطب والرياضة و العلوم التطبيقية ، هذا بخلاف حِرَف المعيشة : الزراعة والتجارة والصناعة ؛ أو كمجتمع اليونان القديمة حيث كانت الصفوة مشغولة بالمحاورات الفلسفية والرياضيات ، والعامة تنصرف إلى مشاهدة المسرحيات والإحتفاليات والمهرجانات والمسابقات الرياضية المتنوعة . فى المجتمع الأمِّىِّ الساذج كمجتمع يثرب قبل إعلان محمد لرسالته ، تشغل العلاقة بين الرجل والمرأة مساحة وسيعة لدى أفراده ، خاصة مع حرارة الطقس وطلاقته وإمتيازه بقدر من الجفاف مما يساعد على فزوزة[٢] هذا الضرب من النزوع[٣] لدى الجنسين .

وليس من قبيل المصادفة أن نجد لهذا النشاط فى لغتهم كثيراً من المترادفات يلوكونها ويتداولونها بكثرة تشعرك بأنهم يجدون لذة ومتعة وهم يرددونها بينهم منها على سبيل المثال :

المباضعة ، الملامسة ، المضاجعة ، المقارفة ، المفاخذة ، المباطنة ، المعافسة ، المجامعة ، المراودة ، المباشرة ، المخادنة ، المناكحة والمواقعة وهذه الكلمات أساسها الفعل الرباعى فَاعَل مفاعلة وهو يعنى اشتراك طرفين فى الإتيان بالعمل مثل : المحاربة والمقاتلة والمصارعة . . . إلخ .

بخلاف مصادر أخرى مثل : الرفث واللمس والإتيان والركوب والاعتلاء والإمتطاء والوطء وهذه جذرها ثلاثى : ركب ، لمس ، وطأ ، أتى . . إلخ .

وهذه الأخيرة تركز على دور الرجل وإبرازه فهو الذى يرفث ويلمس ويأتى ويركب ويعتلى ويمتطى ويطأ وهى أنسب لذلك المجتمع الذكورى . ومن المعلوم أن اللغة هى التعبير الأمثل عن حالة المجتمع التى تنبثق منه رقياً وإنحطاطاً وهى أبلغ دلالة وأفصح إبانة من الملابس والمبانى والمساكن ووسائل الإنتقال .

فعندما تَحْمل لغة عشرات الكلمات الدالّة على الفعل الذى يُمارَسُ بين الرجل والمرأة فهذا يقطع بأنه (= الفعل) يحتل بؤرة اهتمام ذكور وإناث ذلك المجتمع الذى أفرز تلك اللغة .

كان ذلك إذن هو المستوى الحضارى لـ «المجتمع اليثربى» وكان ذلك أيضاً هو مركز إنشغال بال اليثاربة رجالاً ونَسوة فى الربع الأول من القرن السابع الميلادى .

* * *

وعندما هاجر محمد إلى «يثرب» عاش فى حنايا ذلك المجتمع واندمج فيه وحثّ الذين هاجروا قبله أو معه أو بعده على الاختلاط بأهله ، كما رأينا فى «المؤاخاة » بين الوافدين الذين سمَّاهم «المهاجرين» واليثاربة الذين سماهم «الأنصار» تطبيقاً لخطته التى أخذ ينفذها بدأب وإحكام شديدين فى قطع صلة أتباعه بالفترة السابقة ورميها فى مربع النسيان ؛ وصبغ معتنقى دعوته بـ «الصبغة الإسلامية» بما فى ذلك أسماء بعضهم أو كثير منهم والأماكن التى كانوا يعيشون فيها أو يمرون بها ، ولم يكتفِ بتغيير اسم اليثاربة «الأوس والخزرج» إلى «الأنصار» بل غَيَّر اسم قريتهم من «يثرب» إلى «المدينة» وحذَّر من استعمال الاسم القديم وفرض جزاءً على من يخطىء فينطق به ، حتى توارى وأصبح ذكرى عابرة . ولم يكن محمد ملكاً أو سلطاناً ، ولذلك لم يُؤْثَرْ عنه أنه تعالى على مجتمع يثرب أو نفر منه أو تهكم عليه بل اختلط بالفاعلين فيه من الدرجات كافة وعاشرهم معاشرة كريمة ، ومن ثم وبعبقريته الفذة أحاط به وبخباياه وعرف على الفور لا على التراخى محط تفكير اليثاربة من الرجال والنسوان ونعنى به العلاقة بينهما وأدرك أن الوافدين عليه سيغمرهم طوفانه خاصة وان المجتمع المكِّى الذى نشأ فيه غالبيتهم يتشابه إن لم يكن يتماثل حذوك القذة بالقذة - بالمجتمع اليثربى وكان الرباط فيه بين الجنسين أيضاً على الدرجة عينها من التوقد والتوهج .

من هنا حاول محمد معالجة هذا النسق الاجتماعى الراسخ بطرق شتى منها : التشجيع على الزواج أو النكاح - وهى تسمية لها مدلولها العميق خاصة فى ذلك المجتمع الذى ابتدعها - تشجيعاً يدعو إلى الدهشة الوفيرة ، فهو مرة يقول لطالب الزواج (ابتغِ ولو خاتمًا من حديد) ومرة أخرى يقول (زوجتك إياها بما معك من قرآن)[1] .

وعندما يأتى إليه أحد صحابته يستعينه على إتمام نكاحه :

(فيسأله : وكم أصدقت ؟ فقال : مائتى درهم يارسول الله ، قال : سبحان الله ، لو كنتم تأخذون من بطن واد مازدتم ، والله ماعندى ما أعينك به)[٥] . وثورة محمد أو غضبه مردُّها أن ارتفاع المهور يحدُّ من فرص . الزواج (النكاح) وبالقدر عينه يشجع على العلاقات المنحرفة التى قاومها محمد بكل طريقة . ولهذا نراه يتلو قرآناً يغلّظ عقوبة الزنا وتجيئ مطابقة لمثيلتها فى كتاب اليهود المقدس «التوراة» رجم المحصن وجلد غير المحصن مائة جلدة . وكان للقرآن فى نفوس مَنْ دخلوا دين محمد رهبة شديدة ولآياته قداسة ما بعدها قداسة ، ولذلك سنجد أنه فى المشكلات العضال كان فصل الخطاب فيها يأتى عن طريق آيات يقرؤها محمد على الصحابة فما إن يسمعوها حتى يذعنوا لها وللحل الذى حملته على الفور ودون معارضة أو أقل قدر من التمرد ، منها : كيفية التصرف فى أسارى معركة بدر الكبرى (أول معركة حاسمة مع صناديد مكة) ، وطريقة توزيع الغنائم فيها بعد أن اختلفوا عليها اختلافاً كبيراً .

ولقد حسم القرآن نزاعات متعددة بين أتباع محمد ولولاه لحدثَتْ انشقاقات خطيرة بين صفوفهم مثل :

مسألة المواريث وعلى الأخصِّ ميراث المرأة (أماً وبنتاً وزوجة . .) ومثل الاصطدام الذى وقع بين الأوس والخزرج حول مَنْ تولى كبر حديث الإفك حتى إن اثنين من كبارهم تبادلا عبارات الرمى بالنفاق (تهمة أشد لعنة من الكفر وأقسى عقوبة فالمنا فقون فى الدرك الأسفل من النار كما فى القرآن وهناك بعض المشكلات أقل أهميةً - وأيضاً - حُسِمَتْ بالآيات القرآنية مثل سرقة الأبيرق والظهار . . إلخ .

نعود لسياق الموضوع فنقول إن محمداً فى سبيل علاج جريمة الزنا قرأ قرآناً حمل العقاب الصارم لكل مَنْ يقارب تلك العلاقة المحرمة لكل من طرفيها ، ولكنه عاد بعد حين وقال إن الآية التى نصَّت على رجم الزانى المحصن قد نُسخت تلاوتها فحسب ولكنْ حكمها ظل سارى المفعول أى أنها رُفعت من المصحف فلم يعد المسلمون يجدونها مكتوبة فيه ولكنه / فرض واجب عليهم أن يطبقوه على المخالفين المرتكبين لها بدون هوادة .

يقول عمر بن الخطاب ، كنا نقرأ فى القرآن «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البته» ثم نسخت قراءتها وبقى حكمها .

ولم يكتف محمد بقراءة آيات من القرآن فى شأن تحريم العلاقات الفالتة من قيد الزواج أو عقدة النكاح وعقاب مَنْ يقدم عليها ؛ بل هو نفسه أصدر أحاديث تُبَشِّعُ تلك العلاقات وتنِّفر منها بل ومن مقدماتها بدايةً بالنظرة وكانت لأحاديث محمد قدسية عند مَنْ اتبعه على ديانته وإن كانت لا تصل إلى مرتبة قداسة القرآن ، إلا أن المسلمين احترموها وبجّلوها وأطاعوا ما تأمر به ، وانتهوا عما تنهى عنه ، لأن القرآن قَرَنَ طاعة اللهّ بطاعة محمد .

وكان استعمال محمد لأحاديثه هو كسلاح يفلُّ به شوكة العلاقات الجوانح أوضحَ ما يكون فى معضلة اجتماعية من أعقد المشاكل الاجتماعية التى صادفته فى مجتمع يثرب وهى «مشكلة المغيَّبات» وهنَّ الزوجات اللاتى يشترِكُ أزواجهن فى الغزوات والسرايا والبعوث والتجسس وعمليات التصفية الجسدية لبعض الأعداء ولهدم الكعبات وبيوت العبادة والأصنام . . إلخ .

فهؤلاء الزوجات وغالبيتهنَّ العظمى شابات كنَّ يتشوقن إلى الوطء والمفاخذة إبّان غياب أزواجهن - ولم يكن الإسلام بأحكامه المثالية قد تمكَّن بعد من النفوس لا فى الرجال ولا فى النسوان - وفى الوقت نفسه لم يكن كل رجال يثرب أو شبابها يخرجون للغزو بل يبقى منهم المئات وليس عندهم ما يشغل أوقات فراغهم . وكما قلنا كان هذا الأمر يستغرق جُلَّ اهتمامهم ، ومن ناحية ثالثة كان على محمد أن يضمن للخارج (فى الغزو أو غيره) تغطية مسكنه وسلامة إنائه حتى يرجع وإلا أحجم الرجال عن الانخراط فى الغزوات والسرايا والبعوث . . . خوفاً على بيوتهم ؛ وإحجام الرجال عن ذلك أمر بالغ الخطورة لأنَّ الجانب الحربى أو العسكرى من الجوانب التى لا غنى لمحمد عنها بأى حال من الأحوال سواء لضمان الأمان للدولة القرشية التى أقامها فى يثرب أو لتنفيذ الخطة المرسومة المدروسة وهى السيطرة على شبه الجزيرة العربية كلها وإذعانها لزعامة محمد وقيادته ولعل ذلك تحقق فى العام التاسع الهجرى وهو ما عُرف ب «عام الوفود» .

وسوف نرى عندما نتولى «مشكلة المغيبات» بالدراسة والتوثيق أن أحاديث محمد بشأنها مالت إلى التشديد ومضاعفة العقاب مما يقطع بعمق تلك المشكلة وأنها لم تكن أمراً عارضاً .

٢

مجتمع الصحابة

إن سنن الاجتماع ترفض أن تتغير الأنساق الاجتماعية فى مجتمع معين وخاصة تلك التى استمرت مئات السنين ، فى بضعة أعوام ؛ قد تنجح دعوة فى تهذيب عشرات من المحيطين بالداعية ولكنَّ القاعدة الشعبية العريضة تظل محتفظة بأنساقها وعاداتها ، ولاتتغير عندها إلا إذا تغيرت ظروفها المادية مثل : طرق الإنتاج وأدواته ووسائله ، بل إن بعض الملتفين حول صاحب الدعوة تغلب عليهم أعرافهم وطبائعهم المركوزة فى أعماق نفوسهم والتى شبوا وشابوا عليها قبل اتصالهم به أو اتصاله بهم ، خاصةً تلك التى تتعلق بالنوازع الطبيعية وفى أحيان كثيرة يفزعون إلى الداعية معترفين بمقارفتهم لما نهى عنه ، وهو يتسم بالحلم وسعة الصدر وبُعد النظر والفكر السديد والرأى الصائب فيعرف أن الطبع غلاب وأن النوازع البشرية لها هيمنتها فيغفر ويسامح ويتجاوز وينصح فى رفق لأنه يدرك أنه حتى اللزيقون به بَشَرٌ وأنهم عاشوا غالبية عمرهم فى مجتمع له موجبات معينة وأنه من أعسر العسر التخلص منها ما بين عشية وضحاها - ولا يساق دفعاً لذلك فى حالتنا موضع البحث = أنَّ

المجتمع اليثربى دخله عاملٌ جديد وهو دراسة القرآن وأحاديث محمد ، والذى يتولى الردَّ على هذا الدفع : كتبُ السِّيرِ والتواريخ التى أخبرتنا أن الاشـــتغال بهـذه العلـــوم اقتصـــر علـــى عدد محدود من صحابة محمد : (فى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك قال : جَمَعَ القرآنَ على عهد النبى - ﷺ - أربعة كلهم من الأنصار : أبىّ بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ، قلت لأنس : من أبو زيد ؟ قال : أحد أبناء عمو متى)(٦) ؛ وحتى إذا أضيف إليهم (عثمان وعلىّ وتميم الدارى وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص)(٧) ، كان معنى ذلك أنَّ مجموعَ من جمع أى حفظ القرآن تسع أوعشر أنفس فى حين أن عدد الصحابة كان مائة ألف وأربعة عشر ألفا (قال أبو زرعة : . . . قُبِضَ رسولُ الله - ﷺ ومائة ألف وأربعة عشر ألفاً ممن روى عنه وسمع منه ، قيل : يا أبازرعة هؤلاء أين كانوا وسمعوا منه ؟ قال : أهل المدينة وأهل مكة وما بينهما والأعراب ومن شهد حجة الوداع)(٨) .

فإذا كان عدد الصحابة مائة ألف وأربعة عشر ألفا ولم يجمع القرآن منهم فى حياة محمد سوى عشرة فقط - ألا يؤيد ذلك وجهة نظرنا؟ أما أحاديث محمد فمن المتفق عليه أن مَنْ كان يجمعها اثنان فقط هما : أبو هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص والأخير كان يكتب .

وحتى تكون لدى القارىء صورة صادقة عن هذا الأمر نورد بعض الأخبار - الموثَّقة - فى هذا السياق :

١ - (قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن)(٩) . وعبد الله بن مسعود معدود بين علماء الصحابة وخاصة فى مجال القرآن وعلومه ولذا كان مُغْضَباً لاستبعاده من اللجنة التى كوَّنها عثمان لنسخ «المصحف الإمام» والتى ضمّت زيد بن ثابت وكان ابن

مسعود يصيح متوجعاً أو يتوجع صائحاً (يامعشر المسلمين أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف ويتولاه رجلٌ والله لقد أسلمت وإنه لفى صلب رجل كافر)(١٠) .

فإذا كان صحابى مثل ابن مسعود لم يختم القرآن فما بالك بغيره ! !
أما عن أحاديث محمد :-

٢ - (قال أبو هريرة : إنكم لتقولون ما للمهاجرين لا يحدّثون هذه الأحاديث عن رسول الله - ﷺ وإن أصحابى من المهاجرين كانت تشغلهم أرضوهم والقيام عليها وإنى كنت إمرءاً مسكينًا ألزمُ رسولَ الله - ﷺ - على ملء بطنى وكنت أكثر مجالسة رسول الله - ص- أحضر إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا)(١١) . وفى رواية : (كان المهاجرون يشغلهم الصفق فى الأسواق (أى التجارة) والأنصار العمل فى الحيطان (أى زراعة كرومهم وبساتينهم) وفى رأينا أنها أدق لأنها تناسب حال الفريقين فالمهاجرون أصحاب تجارات والأنصار أصحاب زراعات . هذه شهادة واحد من أعلام الصحابة تقطع بأن المهاجرين كانوا فى شغل بالمتاجرة والأنصار تستغرق أوقاتهم أمور الزراعة :

فإذا كان هذا حال أعيان الصحابة فما هو حال عامّتهم ؟

ولعل مما يكمل شهادة أبى هريرة الخبر الذى يذكر أن عمر بن الخطاب كان له جار من الأنصار وكانا يتناوبان الاهتمام بأرضيهما فيتولاهما أحدهما يوماً وينزل الأخر إلى محمد وفى اليوم التالى يحدث العكس حتى كان يومُ سمع فيه الأنصارى أن محمداً اعتزل نساءه التسع فسارع إلى إبلاغ عمر بذلك ففزع فزعاً شديداً لأن ابنته الكبرى حفصة كانت من بينهن ولم تكن ذات حظوة مثل التى نالتها ابنة أبى بكر :

٣ - (عن ابن عباس - رضى الله عنه - عن عمر قال كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد وهى من عوالى المدينة وكنا نتناوب النزول على النبىِّ -ص- ينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره وإذا نزل عمل مثل ذلك ، فنزل صاحبى الأنصارى يوم نوبته فضرب بابى ضرباً شديداً فقال : أثمّ هو ؟ ففزعت فخرجت إليه فقال حدث أمر عظيم . . . فدخلت على حفصة فإذا هى تبكى . . .)[١٢] .

فهذا هو عمر بن الخطاب وهو من «مجلس العشرة المبشرين بالجنة» الذى يشكّل «مجلس شورى محمد» والذى حلّ محل «ملأ قريش» الذى كان يحكم مدينة القداسة مكة قبل الإسلام ، كان يقضى نصف وقته فى أشغاله الخاصة ، فما بالك بمن هو دونه رتبة وأقل لزوقاً بمحمد وأبعد صلة منه ؟ !!

وابنه عبد الله بن عمر له درجة رفيعة بين أصحاب محمد ، تحدثنا الأخبار أنه استغرق أربعة أعوام كوامل ليحفظ سورة البقرة ، ولاشكَّ أنه كان يتمتع بما يسميه علماء النفس «الذاكرة الحرفية» وهى التى تحفظ النَّصَّ الذى تسمعه أو تقرؤه حرفياً مثله فى ذلك مثل باقى أقرانه ، لأنَّ المجتمعات الأمية تعتمد على التلقى والحفظ لأنَّ وسيلة إيصال المعلومات أو العلوم هى المشافهة وهنا يبرز دور «الحافظة» أو الذاكرة الحافظة» ؟ حتى فى أيامنا هذه نجد الأمى يعتمد على ذاكرته أكثر من القارىء الكاتب الذى يعتمد على التدوين ، وليس معنى ذلك أن عبد الله بن عمر كان أمياً ولكننا نتحدث عن المجتمع الذى نشأ فيه .

إذن فما الذى جعل ابن عمر يستغرق أربعة أعوام ليحفظ سورة واحدة هى سورة البقرة فى حين أننا نرى ونسمع عن أطفال دون العاشرة

يحفظون القرآن كله !!! العلة في ذلك بلا مراء هى انهماكه فى العناية بأعماله شأنه فى ذلك شأن سائر المهاجرين الذين تحدث عنهم أبوهريرة فيما سلف .

وهذا هو نص الحديث أو الخبر الذى نقل إلينا استغراق عبدالله بن عمر - أربع سنوات ليجمع (= ليحفظ) سورة البقرة وحدها :

٤ - (عن ميمون أن ابن عمر - رضى الله عنه - تعلّم سورة البقرة فى أربع سنين)[١٣] .

هذه بعض الأخبار وكلها موثّقةٌ - قدمناها كأمثلة فحسب تقطع بأن ما جاء به محمد من علوم كان تلقيها ودرسها وجمعها أو حفظها مقتصراً على عدد محدود من صحبه ومنحصراً داخل مسجده ، فضلا عن أن المدة التى قضاها فى يثرب لا تزيد على عشرة أعوام إلا ببضعة شهور وهى مدة قصيرة للغاية لا تكفى لتغيير أعراف القاعدة الشعبية العريقة وعاداتها فى يثرب . ولذلك لم يكن مفاجأة أن تحفل دواوين السنة وكتب السِّيَر والتواريخ وعلوم القرآن مثل أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وتفسير القرآن . . إلخ بكم هائل من أخبار عن علاقات غير مشروعة مثل :

الاغتصاب والزنا والدخول على المغّيبات ، وتجاوز الأوامر والنواهى الصريحة مثل الجماع فى نهار رمضان وفى الإحرام فى الحج وأثناء حيض الزوجة أو استحاضتها .

وتلك التى لا تصل إلى حد اللامشروعية ولكنها تتنافى مع الحد الأدنى من الشعور الإنسانى السوىّ مثل مجامعة جارية أو زوجة فى ليلة وفاة زوجة أخرى وفضح الزوجة لزوجها العنّين على رؤوس الأشهاد حتى عرفت القرية (يثرب) كلها بالأمر وتصر على طلب الطلاق لأنها لا

تطيق الصبر على المجامعة والمفاخذة ولا تضع فى اعتبارها أنْ تظل معه ولو لمدة يسيرة عسى أنْ تكون عنته أمراً عارضاً أو راجعة لعامل نفسى قد يزول بعد قليل !!!

وإعتراف امرأة أو أكثر أنها رأت فى الحلم زوجها ركبها وظل يدعكها حتى ارتوت وأنزلت فما الحكم : هل تعتبر تلك جنابة فتغتسل منها؟ !!

وأخرى تصيح بأعلى صوتها حتى يسمعها من يسير فى الطريق متمنية أن تغيب فى أحضان فتى جميل وبينهما قنينة خمر معتقة لتتضاعف لذتها وتزداد متعتها !

وثالثة يروق لها أجير زوجها فترتمى بين ذراعيه ولا تتركه إلا بعد أن يقضى لها وطرها فيكتشف زوجها ذلك فيشكوهما !

ورجل تأتيه إمرأة تبتاع (تشترى) منه تمراً فيحضنها ويقبلها !

وآخر وفى المشاعر المقدسة ينتهز فرصة نوم إمرأة فيعتليها غير عابئ بحرمة الزمان أو المكان .

وثالث يأتمنه صاحبه على أهل بيته عند سفره ليراعيهم ويقضى حوائجهم فماإن يبعد حتى يهجم الصاحب على الزوجة منتويا اغتصابها !!!

ورابع يقابل إمرأة كانت بغيًا فتابت وأقلعت فيراودها عن نفسها !

وفتى حسن الوجه جميل الطلعة فتن نساء يثرب فأمر به الحاكم فحلق شعر رأسه فازداد بهاء فتضاعف ولَهُ اليثربيات به فنفاه . وهكذا وهكذا .

عشرات الصور التى حملتها كتب تلقتها «أمة الإسلام» بالقبول والتجلَّة أى لا مطعن عليها - تقطع بأن «مجتمع يثرب» لم يتغير لا فى قليل ولا كثير وأن العلاقة بين الرجل والمرأة هى علاقة ذكر وأنثى وأنها كانت المحور الذى يدور حوله ذلك المجتمع وأن محمداً بذل جهودا تفوق طاقة البشر ليتسامى ذلك المجتمع بها ولكن لرسوخ ذلك النسق الاجتماعى وتجّذره وضربه حتى الأعماق فيه هذا من جانب - ولقصر المدة التى قضاها محمد بين حنباته من جانب - ظل ذلك المجتمع على حاله ولم يتغير إلا بنسبة ضئيلة .

٣

المرأة في مجتمع يثرب

ليس أدلَّ على أهمية التماسّ بين الذكر والأنثى فى مجتمع يثرب من أن نورد أمثلة لما كان يحدث فى هذه الدائرة - فى ذلك الوقت - من واقع أخبار موثّقة نقلتها إلينا كتبٌ لا سبيل للطعن عليها بأى حال .

ونبدأ بأبشع صورتين فى هذا المجال : الاغتصاب والشروع فيه :

- (عن أسباط بن نصر عن سماك بن علقمة بن وائل عن أبيه وائل بن حجر ، زعم أن امرأة وقع عليها رجلٌ فى سواد الصبح وهى تعمد إلى المسجد فاستغاثت برجل مرّ عليها وفرّ صاحبها (أى الذى وقع عليها) ثم مرّ عليها قوم ذوو عدة فاستغاثت بهم فأدركوا الذى استغاثت به وسبقهم الأخر ، فجاءوا يقودونه إليها فقال : إنما أنا الذى أغثتك وذهب الأخر فأتوا به رسول الله - ﷺ - . . . إلخ)[١٤] .

وباقى القصة أن محمداً أمر برجمه ولكن استيقظ ضمير الجانى (الفاعل الأصلى) فاعترف وبُرِّىءَ الآخر الذى أغاثها .

فهنا امرأة تسعى لصلاة الفجر ولكن ذلك لم يمنع الرجل من اغتصابها ونرجح أن ما كان يساعد على سرعة المباشرة سواء فى هذا الخبر أو غيره مما سوف نسطره أنهم رجالاً ونساءً لم يكونوا يرتدون ملابس داخلية لأنهم كانوا يجهلونها تماماً خاصة السراويل ولم يكن يعرفها إلا أقل القليل منهم .

(حدثنا الحسن بن عبد الملك بن ميسرة عن النزال بن سيرة قال :

بينما نحن بـ «منى» مع عمر - رضى الله عنه - إذ امرأة ضخمة على حمار تبكى قد كَاد الناس أن يقتلوها من الزحمة عليها وهم يقولون لها : زنيت . . .زنيت .

فلما انتهت إلى عمر - رضى الله عنه - قال : ما شأنك إن المرأة ربما استكرهت؟

فقالت : كنت إمرأة ثقيلة الرأس وكان الله يرزقنى من صلاة الليل فصليت ليلة ثم نمت والله ما أيقظنى إلا رجل قد ركبنى ثم نظرت إليه معقبا ما أدرى مَنْ هو منْ خلق الله - فقال عمر : لو قتلت هذه خشيت على الأخشبين النار - والأخشبان الجبلان المطبقان على مكة وهما أبوقبيس والأحمر)[١٥] .

امرأة من قوَّامات الليل وفى أقدس الأماكن وأقدس الأزمان وتؤدى أقدس الشعائر كل ذلك لم يُحُل دونَ الوثوب عليها واغتصابها .

- (وقال فى رواية الكلبى إن رجلين أنصارياً وثقفياً آخى رسول الله - ﷺ - بينهما فكانا لا يفترقان ، فخرج رسول الله - ﷺ - فى بعض مغازيه وخرج معه الثقفى وخلّف الأنصارى فى أهله وحاجته وكان يتعاهد أهل الثقفى ، فأقبل ذات يوم فأبصر إمرأة صاحبه قد اغتسلت

وهي ناشرة شعرها فوقعت فى نفسه فدخل ولم يستأذن حتى انتهى إليها فذهب ليقبلها فوضعت كفها على وجهها فقبل ظاهر كفها ثم ندم واستحيا فأدبر راجعاً فقالت : سبحان الله خُنت أمانتك وعصيت ربك ولم تصب حاجتك . . .)[١٦] .

هذا اليثربى لم يعبأ بمؤاخاة محمد بينه وبين الثقفى وأنهما أصبحا كالأخوين لا يفترقان ، ولا أن الثقفى خرج مجاهدا فى سبيل الله ، فما إنْ رأى زوجته قد اغتسلت ونشرت شعرها حتى نسى ذلك كله واقتحم عليها منزلها ناويا اغتصابها لولا أنها كانت عفيفة فصدته ووبخته .

هذا الخبر يؤكد ما ذكرناه من أنَّ الأنساق الاجتماعية المتمكنة فى النفوس من أعسر العسير أن تزول فى بضع سنين وبمجرد قراءة أو سماع نصوص ومواعظ .

- (قال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت آية (والذين إذا فعلوا فاحشة) فى نبهان التمَّار ، أتته امرأة حسناء باع لها تمراً فضمها إلى نفسه وقبلها ثم ندم على ذلك فأتى النبى - ﷺ - وذكر له ذلك فنزلت هذه الآية)[١٧] .

هذا التمَّار (بائع التمور) انتهز فرصة خلوته بالمرأة الحسناء التى جاءت تعامله فهجم عليها واحتواها بين ذراعيه وقَّبلها ويبدو أنها قاومته فاستحى من نفسه وندم على فعلته الفاحشة .

- (عن علقمة والأسود عن عبد الله (بن مسعود) قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - فقال يارسول الله إنى عالجت إمرأة فى أقصى المدينة وإنى أصبت منها دون أن آتيها وأنا هذا فاقض فىّ ما شئت قال : فقال عمر : لقد سترك الله لو سترت نفسك فلم يرد عليه النبى - ﷺ-

فانطلق الرجل فأتبعه رجلاً ودعاه فتلا عليه الآية (إن الحسنات يذهبن السيئات) فقال : يا رسول الله هذا له خاصة؟ قال : لا بل للناس كافة)[١٨] .

ونذكّر بما قلناه إن الداعية يصبر ويتسامح ويتجاوز ويفتح باب التوبة والإنابة ويتلو على الرجل المخالف آية لا تقنطه بل تعطيه الرجاء ما دام لم يقترف بما يوجب توقيع الحد عليه - لماذا؟

لأنَّ محمداً يعرف أن هؤلاء سلخوا من عمرهم شطراً كبيراً فى مجتمع تستعر فيه علاقة الذكر بالأنثى والأنثى بالذكر على السواء وأن هذا النسق من السلوك لن يختفى فى عقد من السنين ولا أن الفاعلين فى ذاك المجتمع سيقلعون لمجرد سماع موعظة بليغة !

وتتكرر المخالفات من أفراد ذلك المجتمع فلا يقابلها محمد إلا بمزيد من سعة الصدر والعفو :

- (حدثنا سليمان التميمى عن أبى عثمان النهدى عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من إمرأة قبلة فأتى النبى - ص- فذكر ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية (أقم الصلاة . .إلى أخر الآية) فقال الرجل إلىّ هذه؟ قال : لمن عمل بها من أمتى)[١٩] .

إن محمداً أدرك أنَّ الجنوح مستمر وسلسلة الأخطاء والخطايا ممتدة وأن القاعدة الشعبية العريقة واقعةٌ لا محالة تحت سلطان الأعراف والقيم والتقاليد التى درجت وشبت وشابت عليها وأن من الأصلح فتح باب التوبة فقرأ عليهم آية تخبرهم أن إقامة الصلاة والإتيان بالحسنات يمحوان تلك الآثام التى يمارسونها فى سهولة ويسر باعتبار أنها جزء من نمط الحياة الذى يحبونه .

- (عن عبد الله بن مغفل قال : لقى رجل إمرأة كانت بغّياً فجعل يداعبها حتى بسط يده إليها فقالت : مه ، إن الله قد أذهب الشرك فتولّى فأصابه الحائط فشجه فأتى النبى - ﷺ - فأخبره فقال :

أنت عبد أراد بك خيراً وإذا أراد الله بعبدخيراً عجل له العقوبة فى الدنيا)[٢٠] .

هذا الصحابى يداعب البغىّ السابقة ثم يبسط يده إليها بادئاً بما فى نفسه أنه ينتهى بهما إلى المواقعة ولكنها تصده صداً عنيفاً وتذكّره بأن ذاك كان أيام الشرك فيؤوب خزيان حتى لا يبصر جداراً أمامه فيشجّه ، ولما ينهى الأمر إلى محمد لا يعنفه بل يرفق به ويعلمه أن الله أراد به خيراً .

هذه بعض أمثلة على ما كان يقع من حوادث اغتصاب أو شروع فيه ، ليس من بينها واحد مستخرج من مصدر مشكوك فيه أو (مضروب) أى مغموز فيه ، وهى تقطع بأن «المجتمع اليثربى» رغم وجود محمد بين ظهرانيه فإن نسق التصاق الذكر بالأنثى ظل كما كان مشتعلاً متوهجاً . ولكن الذى يلفت النظر بشدة هو موقف محمد الذى اتسم بغاية الرفق والتسامح والعفو والتجاوز لأنه أدرك بثاقب بصيرته النفاذة أن أفراد ذلك المجتمع من المستحيل أن يتغير سلوكهم سريعاً .

ومن البديهى أن نذكّر أنَّ تلك الأفعال لم تصل إلى ارتكاب ما يستوجب توقيع الحد باستثناء واقعة اغتصاب المرأة التى كانت فى طريقها لأداء صلاة الفجر إذ عفا عن الجانى لأنّه أكبر فيه شجاعته إذ تقدم طائعاً مختاراً معترفاً بجرمه بعد أن رأى بريئاً سوف يدفع ثمن فعلته الشنعاء .

«وُفِّقَتْ مدرسة التحليل النفسى إلى حد كبير فى تفسير الأحلام . . وقالت : إن الحلم هو دائماً إرضاءٌ لرغبة مكبوتة . . فثّمت رغبات

أخرى قد تتخذ من الحُلم سبيلاً وهمياً إلى إرضائها لأنها لاتجد فى عالم الواقع ما يرضيها»[٢١] .

إذن من أهم وظائف الحُلم النفسية تعويض الحالم بما يفتقر إليه فى الواقع . . ويرى فرويد وهو يتكلم عن الأحلام وتفسيرها أنَّ لكل حُلم محتوىً ظاهراً ومعنىً خبيئاً نسميه «الأفكار الكامنة» وأنه يجب التمييز بينهما ، وأنَّ ذلك لازم فى عملية تأويل الأحلام[٢٢] .

الرغبة تتحول فى الأحلام إلى واقعة كما تتحول الأفكار المستترة إلى صور ذهنية فى أغلب الأحوال[٢٣] .

وبعد هذا التمهيد نلقى نظرة على الأخبار الآتية :

- (عن عائشة زوج النبى - ﷺ - أنها أخبرت عروة بن الزبير راوى الحديث أن أم ُسليم أم بنى طلحة دخلت على رسول الله - ﷺ - فقالت : يارسول الله إن الله لا يستحى من الحق أرأيت المرأة ترى مايرى الرجل . . أتغتسل ؟ قال : نعم ، فقالت عائشة : أفّ لك أترى المرأة ذلك ، فالتفت إليها النبى - ﷺ -- فقال : تربت يمينك من أين يكون الشبه ؟)[٢٤] .

وفى رواية أخرى :

- عن أم سُليم - رضى الله عنها - قالت : كنت مجاورة أم سلَمة - رضى الله عنها زوج النبى -ﷺ - فقالت : أم سليم : يارسول الله أرأيت اذارأت المرأة أن زوجها جامعها فى المنام أن تغتسل ؟ فقالت أم سلمة : تربت يداك يا أم سليم فضحت النساء عند رسول الله - ﷺ - . . . . . .)[٢٥] .

- أخرج ابن أبى شيبة عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن امرأة يقال لها بُسْرة جاءت إلى النبى - ﷺ - وقالت : يارسول الله إحدانا ترى أنها مع زوجها فى المنام ، قال : إذا وجدت بللاً فاغتسلى يا بسرة)(٢٦) .

الحديث الأول حديث أم سليم أخرجه أحمد ومسلم والبيهقى والدارمى ونقله ابن قدامة فى المُغنى أى أنه ثابت وموثق توثيقاً مكيناً والأخر حديث بسرة أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه ونقله عنه أبو حمزة الدمشقى فى «الأسباب» وهما يدلان على أن إحتلام النسوان فى المجتمع اليثربى آنذاك ، الناتج عن رؤيتهن أحلاما بأن أزواجهن تفخذوهن فى المنام ، مسألةٌ لايرقى إليها شك .

وهذا يؤيد فكرتنا التى قلنا بها من أن إتصال الذكر والأنثى كان لديهم من الشواغل الأثيرة حتى اللاتى لا يجدن ذلك متحققاً فى واقع الحياة يرينه فى الحُلم . وقد ذكرنا فيما سلف ما يؤكده علماء التحليل النفسانى من أن الحلم يؤدى دوراً تعويضياً كبيراً بتحقيق الرغبات الكامنة المكبوتة التى لا تجد فى الواقع ما يرويها ويشبعها .

***

ولم يقتصر الاحتلام على النسوان بل كان بعض الرجال يحتلم ، كان ذلك يحدث إذا اضطرته ظروف قاهرة للانفصال عن أنثاه مما يقطع بأن الاتصال بين الجنسين كان طقساً يمارسونه يومياً فإذا لم يتيسر لهم فى اليقظة أى فى الواقع رأوه فى المنام على سبيل التعويض :

- (قال رفاعة بن رفاعة بن مالك : غلبنى النوم فإحتلمت حتى اغتسلت آخر الليل - كان ذلك ليلة غزوة بدر الكبرى)(٢٧) .

لقد كان حّرياً بهذا الصحابى أن يبيت مهموماً بالمعركة التى تقرر أنْ

تدور رحاها فى اليوم التالى وهو يعلم أنها عركة فاصلة ولكن الطبع غلاّب والعادة لها سلطانها .

ولم تكن كل النساء اليثربيات يكتفين بالمفاخذة التعويضية التى تحدث فى الأحلام بل كان بعضهن يمتلك حساً واقعياً لم يرض بما يراه أو حتى يحسه فى الرؤية فكان يبحث عن الزواج أو النكاح بحثاً دؤوباً وفى عجلة ولهفة وينقٍ عن الشاب الجلد الذى يروى الظمأ ويعطى المتعة ويعرض عن الشيخ الكبير حتى لو كان ذامالٍ مثل :

سُبيعة بنت الحارث الأسلمية كانت زوجة لسعد بن خولة من بنى عامر بن لؤى وكان ممن شهد بدراً فتوفى عنها فى حجة الوداع ، فما إن طهرت من نفاسها حتى بادرت بالتزين والتجمل للخُطّاب انتظاراً لإقبالهم عليها فدخل عليها ثلاثة هم : أبو السنابل بن يعكك وكهل وشاب فاختارت الشاب وفضلته وتفضيل الشاب ليس فى حاجة إلى تعليل :

- (. . . فلما تعلت من نفاسها تجملت للخُطّاب فدخل عليها أبو السنابل بن يعكك فقال لها : مالى أراك تجملت للخطاب ترجين (النكاح) فخطبها فأبت أن تنكحه فخطبها رجلان : شاب وكهل فخطبت إلى الشاب)[٢٨] .

وتراوحت الروايات فى مدة الوضع بعد وفاة الزوج مابين أسبوع إلى ثلاثة أسابيع ولم يستغرق طهرها من النفاس أكثر من أسبوعين أى أن سبيعة تزوجت بعد ترملها بشهر أو أقل ولا تفسير لذلك إلا الوله بالتماسّ مع الطرف الآخر .

وواقعة أخرى عن ذوات النزعة الواقعية يحملها لنا الخبر الآتى :-

- (عن الربيع بن سبرة أنَّ أباه حدثه أنهم ساروا مع رسول الله -ﷺ - فى حجة الوداع فقال : استمتعوا من هؤلاء النساء ، والإستمتاع عندنا التزويج فعرضنا ذلك على النساء فأبين إلا أن يضرب بيننا وبينهن أجلاً فقال رسول الله -ﷺ- افعلوا . فخرجت أنا وابن عم لى معه بُرد ومعى برد وبرده أجود من بردى وأنا أشَبُّ منه فأتينا امرأة فأعجبها شبابى وأعجبها بُرده فقالت : بُرد كبُرده وكان الأجل بينى وبينها عشراً فبت عندها تلك الليلة .

وتكملة الخبر تحريم زواج المتعة إلى يوم القيامة(٢٩) .

سبيعة الأسلمية فور طهرها من نفاسها تتجمل وتتزين ويدخل عليها الخُطّاب يعاينونها وتعاينهم ثم تختار منهم الشاب وتذر الكهل الذى أهلك الدهر قوته والأخرى - صاحبة زواج المتعة - لا تعير بُرد الشيخ الكبير اهتماماً رغم نفاسته وجودته وتفضل الشاب ذا البُرد الحائل المستهلك إذ ماذا يغنى البُرد الجيد عن صاحبه الكبير المتهالك !!!

ووقوع اختيار المرأتين على الشابين مؤشر واضح على قوة نزعة التماسّ بين الذكر والأنثى لديهن وهيمنته على وجدانهن وأنه الهاجس الوحيد الذى يتمركز فى بؤرة الشعور لأن الأخبار لم تحدثنا أن السبب كان هو حسن خُلُق الشابين أو عمق تدينهما أو تضحيتهما فى سبيل الدين أو لسابقتهما فى الإسلام / للسبب فى آن .

ولعل من المناسب أن نذكر أن السبب فى أنَّ محمداً أحلَّ لأصحابه «زواج المتعة» هو إدراكه العميق لما كان يجرى داخل حنايا «مجتمع يثرب» وكان يهيمن على تفكير الفاعلين فيه من الجنسين فأحلَّ هذا النوع من النشاط حتى يدرأ به عنهم شرور

العلاقات المحرمة فهو فى آخر المطاف (زواج) أو (نكاح) مشروع لاشبهة فيه ومما يؤيد ذلك تيسير ما يُدفع فى زواج المتعة من صداق أو سياق أو مهر مثل : بردة أو نعلين أو أو حفنة من تمر . . . ونحن نزكّى رأى ابن عباس أنَّ زواج المتعة ظل حلالاً حتى حرَّمه عمر بن الخطاب ونعلل تحريم ابن الخطاب له هو تدفق السبايا والجوارى المجلوبات من البلاد المفتوحة والموطوءة على يثرب حتى شبع الرجال منهن ومن ثم لم يعد هناك مبرر ل «زواج أو نكاح المتعة» وسبق أن ذكرنا أن تغيّر الظروف المادية لدى مجتمع معين يؤدى بطريق الحتم واللزوم إلى تغير أنساقه الاجتماعية وعاداته وأعرافه وأفكاره بل وعقائده وعلى أحسن الفروض تفسير تلك العقائد تفسيراً مختلفاً .

ولكن ماذا تفعل المرأة فى مجتمع يثرب إذا تزوجت من رجل لم يستطع إرواء ظمئها ؟

إنها تشهِّر به وتعلن ذلك للقاصى والدانى ، للبعيد والقريب حتى تعلم القرية (يثرب) كلها بعنته وتلجأ لمحمد طالبةً منه أن يخلصها من هذه (المصيبة) ولا تقول ذلك بصورة ملفوفة بأن تلمح ، لا ، بل إنها تصيح مصرِّحة بذلك بأعلى صوتها وبطريقة خادشة تفزع حتى الرجال من الكهول :

- عن عائشة قالت : دخلت امرأة رفاعة القرظى وأنا وأبوبكر عند النبى - ﷺ - فقالت : إن رفاعة طلقنى البته وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجنى وإنما عنده مثل الهُدبة وأخذت هُدبةً من جلبابها ، وسعيد ابن العاص بالباب لم يؤذن له فقال : يا أبا بكر ألاتنهى هذه عما تجهر به بين يدى رسول الله - ﷺ - فما زاد ورسول الله - ﷺ - على التبسم وقال :

كأنك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة . . . لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك)[٣٠] .

ورفاعة القرظى هو رفاعة بن السموءل والمرأة هى تميمة بنت وهب . والخبر موثق أشد ما يكون التوثيق إذ أوردته عوالى دواوين السنة ولا يكاد يخلو منه كتاب من كتب الفقه فى المذاهب كافة لأنه إنطوى على قاعدة فقهية هى «ذوق العسيلة» :-

وهـــو دلـــيل دامـــغ على أن مســـألة الملامســـة بـــين الجنســـين فى «مجتمع يثرب» مسألة هامة ومُلحَّة لدى اليثاربة رجالاً ونسوة .

***

وفى أحيان أخرى كانت المرأة فى ذلك المجتمع لا تكتفى بقدرة الرجل على الركوب والمباطنة وكفايته فى المجامعة والمفاخذة ، بل كانت تشترط فيه أن يكون مليحاً وضيئاً حتى تكتمل لها المتعة أثناء الاعتلاء والامتطاء :

- (امرأة قيل إنها حبيبة بنت سهل الأنصارية وقيل أنها جميلة بنت سلول وقيل إنها جميلة بنت أبى سلول وقيل بل إنها أخت عبد الله بن أبىّ بن سلول ، تزوجت من قيس بن ثابت وهو قصير دميم ويبدو أنها لم تعاينه قبل النكاح (الزواج) فما إن وقعت عيناها عليه حتى كرهته ، وحاولت أن تعاشره ولكن نفسها لم تطاوعها إذ مما لاشك فيه أن قبح خلقة أحد الطرفين ودمامته يفسدان على الآخر متعته ولذته وبهجته ، فذهبت إلى محمد وأبلغته أنها لاتشتكى من ابن ثابت فى خُلقه ودينه ولكنها لا تطيقه بغضاً وتكره دمامته ولولا مخافة الله لبصقت فى وجهه

كلما دخل عليها وأنها تريد فراقه لأن رؤيته تصيبها بالغمِّ والكآبة والابتئاس وكان أصدقها حائطاً أى حديقة .

وفى رواية حائطين فسألها محمد إن كانت على استعداد لتردّ عليه حديقته فسارعت تجيب : أردها وزيادة فاستدعى قيساً وفكَّ ما بينهما من عقد النكاح وردت الحديقة)[٣١] ولأنه أول خلع فى الإسلام بين زوجٍ وزوجه نجده مسطوراً فى كتب المذاهب الفقهية كافة فى الأبواب التى تتناول النكاح والطلاق والخلع والظهار . . .

هذه اليثربيه تزوجت رجلاً فاضلاً لاعيب فى دينه أو خُلقه أو معاملته أو عشرته أو إنفاقه على البيت ومع ذلك أبغضته وفزعت إلى محمد مُصرَّة على طلب الانفصال عنه لمجرد أن منظره كئيب يفقدها متعة التلاقى ونشوة التماسّ .

***

وفى المقابل نرى أن ملاحة ابن واحد من الصحابة ووضاءته قد جَنَتَا عليه إذ تعشقته نسوان ذلك المجتمع وتدلَّهن فى حبه وتمنينه وأخذن يصرحن بذلك فى أبيات شعر :

- (نصر بن الحجاج بن علاط السلمى كان من أحسن الناس وجهاً ولُمة وفى ليلة سمع عمر بن الخطاب امرأة تقول : ألا سبيل إلى خمر فأشربها : ألا سبيل إلى نصر بن حجاج وهذه المرأة هى الفُريّعة بنت همام ويقال : إنها أم الحجاج بن يوسف الثقفى ولذلك قال له (للحجاج) عروة بن الزبير : يا ابن المتمنية .

فنفى عمر نصراً من المدينة فأتى الشام فنزل على أبى الأعور السُلَمى

(له صحبة ومن شيعة معاوية ضد علىٍّ) فهوته امرأته وعشقها (= نصر) وفطن أبو الأعور لذلك . . فابتنى له قبة فى أقصى الحىٍّ فكان بها وإشتد ضناه بالمرأة كلفاً بهاحتى مات وسمى «المُضنَّى» وضربت به الأمثال)(٣٢) .

وفى رواية أن عمر بن الخطاب أمر بحلق رأسه فازداد حسناً وجمالاً فتضاعف تولُّه اليثربيات به وأصبحت كل يثربية تتمنى التماسّ به فنفاه ابن الخطاب عن يثرب (المدينة) ولاذنب لنصر فى ذلك فالجمال منحة من الله لا من ُصنعْه هو ، والمرُء يؤاخذ على ما جنت يداه ويُسأل عما إقترف فنفْى عمر لهَ وتغريبه إياه لم يكن عدلاً وليس فى شرع الإسلام ما يسوِّغه أو يبرره -

ونصر هذا أبوه صحابى بلا خلاف وكذا أبو الأعور السلمى (من رهطه وعشيرته) الذى نزل عليه ضيفاً فى منفاه صحابى أيضًا وفى الأغلب الأعم أنَّ امرأة أبى الأعور هى الأخرى كذلك ولم تذكر المصادر اسمها لنتأكد من ذلك ولكننا نقوله من باب الترجيح ، فهذه المجموعة التى تشكل أبطال القصة تمثل عينة ل «مجتمع يثرب» وما كان يشغله فى هذا المجال ، فلو لم تكن مسألة التلاقى بين الأنثى والذكر ذات بال لما افتتنت اليثربيات بالفتى الجميل نصر ولما لاحقنه وتمنَّينه وقلن شعراً فى ذلك حتى ارتفع الأمر إلى الحاكم فلا يجد خلاصاً لهذه المشكلة التى أرَّقت عيون نسوة يثرب إلا بنفيه منها .

وتعجُّ المصادر على اختلافها وتنوعها (أحاديث ، تفسير ، أسباب نزول وورود ، ناسخ ومنسوخ ، فقه . . .) بصور عجيبة تؤكد ما نذهب إليه :

- (عن عكرمة عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى -ﷺ- قال : إن امرأتى لا تمنع يد لامس ، قال : غربها ، قال : أخاف أن تتبعها نفسى قال : فاستمتع بها)[٣٣] ، وعبارة (لا تمنع يد لامس) واضحة لا تحتاج إلى بيان ففى القرآن (أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً . .)[٣٤، ٣٥] ، ومع ذلك فهذا الرجل اليثربى لم يأخذ بنصيحة محمد أن يغرّب زوجته اليثربية التى لا طاقة لها بمنع يد لامس ويعلل ذلك بأنه يحبها ولا يطيق فراقها ولو فعل ذلك أى لو نفاها لتبعها أى لحق بها فى منفاها !!! .

ويثربية أخرى تظهر عليها علامات الإستجابة ليد مَنْ يلمسها ، ومنذ قديمٍ حال هذا الصنف من النسوة لايخفى على اليقظ :

- (قال رسول الله - ﷺ - : لو كنت راجماً أحداً بغير بيِّنه لرجمت فلانة فقد ظهرت فيها الريبة فى منطقها وهيئتها ومَنْ يدخل عليها)[٣٦] .

فى الحديث أنَّ الشك يحوط تلك اليثربية من وجوه ثلاثة :

كلامها مضموناً وطريقة وصوتا . . . إلخ وملابسها وطريقة تزينها - وأن لها عملاءها من اليثاربة أفراد ذلك المجتمع الذين يشاركونها فى أفعالها ، ويبدو أن دائرة نشاط تلك ال «فلانة» اتسعت وتعمقت وانتشرت حتى أقلقت محمداً .

٤

مجتمع الذكور والإناث

كانت نزعة معافسة النساء لدى رجال «المجتمع اليثربى» من القوة بحيث دفعتهم إلى تحطيم الحواجز التى أقامتها «النصوص المقدسة» صراحةً وبلا مواربة مثل : مَنْ يظاهر من إمرأته ثم يعتليها قبل التكفير وآخر يركب زوجته وهى حائض أو مستحاضة وثالث يطؤها فى نهار رمضان ورابع ينكح إمرأة أبيه أو يعاشرها دون عقدة نكاح وبتعبير الخبر «يدخل عليها» والمملوك الذى يشرع فى مفاخذة جارية سيده بادئاً - كالعادة - بتقبيلها ، وقد يحدث العكس : المرأة تسعى إلى أجير زوجها ليشبعها ويروى لها ظمأها لعجز زوجها عن ذلك . . . إلخ .

كل هؤلاء ذكوراً وإناثا يعلمون علم اليقين أن الفعل الذى قارفوه حَرَّمته عليهم الشريعة التى بلّغها محمد ولكّن نزعة التلاقى بالآخر تغلبهم وتقهرهم وتملك عليهم نفوسهم وعقولهم ووجدانهم وتعطل ملكة التفكير السديد عليهم فلا يرون فى «النصوص المقدسة» إلا قيوداً تحول دون انطلاقهم :-

- (أوس بن الصامت بن قيس الخزرجي الأنصارى ظَاهَرَ من امرأته فوطئها قبل أن يكفِّر)[٣٧] .

وهذا رجل آخر يرتكب ذات المخالفة :

- أخبرنا أبو سلمة ومحَّمدّ بن عبد الرحمن أنَّ سلمة بن حجر البياضى جعل إمرأته كظهر أمه حتى يمضى رمضان ، فلما مضى نصف رمضان وقع عليها فأتى رسول الله - ﷺ - فقال إعتق رقبة)[٣٨] .

فهذا الصحابى سلمة - أراد أن يتفرغ للعبادة فى رمضان ولما كان يشك فى قوة إرادته فقد ظاهر من إمرأته طوال ذاك الشهر لكيلا يقربها حتى انصرام الشهر ولكنه لم يصبر أكثر من أسبوعين وفى ليلة النصف بدل أن يحيها بالصلاة والدعاء والذكر والتهجد . . . إلخ وثب على إمرأته فوطئها غير عابئ لابالبمين ؛ يمين الظهار الذى قطعه على نفسه ولا بالنص الذى يمنع ملامسة النساء إبّان مدة الظهار ، لأنَّ نزعة التواصل مع الجنس الآخر غلابة قهارة تكتسح فى طريقها العقود والمواثيق والأيمان بل والنصوص نفسها .

وهذا آخر لا يرعى للصيام حرمة ويسيطر عليه الدافع ويهيمن على نفسه وحواسه ويشلُّ عقله فيسارع إلى امرأته فيعتليها فى نهار رمضان غير عابىء بحرمة الشهر وقدسيته ولا بالنصوص الناهية :

- (عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال : بينما نحن جلوس عند النبى - ﷺ - إذ جاءه رجل فقال : يا رسول الله هلكت ، قال : مالك ؟ قال : وقعت على إمرأتى وأنا صائم)[٣٩] .

ولا يقال دفعاً لذلك أن الرجل كان صائماً صيام تطوع لا صيام

رمضان والرد عليه أنه لو كان كذلك لما أسرع إلى محمد لظنه أنه هلك لأنه لو كان صيام تطوع لكان فى مقدوره الإعادة كما أن بقية الحديث تقطع بوقوع الامتطاء فى نهار رمضان .

وهناك العديد من الأحاديث والأخبار التى تقطع بوقوع ملامسة الزوجات فى نهار رمضان وهذا الخبر سقناه على سبيل المثال لا الحصر منعاً من الإملال والإطالة .

***

- (كان لزنباع الجذامى عبد يقال له «سندر» وجده يقبِّل جارية له فخصاه وجدعه فأتى سندر رسول الله - ﷺ - فأرسل إلى زنباع وقال : من مُثِّل به وأُحْرِقَ بالنار فهو حر ، وهو مولى الله عز وجل ورسوله وأُعتق سندر فقال له سندر : يا رسول الله أوصِ - بى فقال : أوصى بك كل مسلم ، فلما توفى رسول الله - ﷺ - أتى سندر إلى أبى بكر فقال : احفظ فىّ وصية رسول الله - ﷺ - فعاله أبو بكر حتى توفى ثم أتى بعده إلى عمر فقال عمر : إن شئت أن تقيم عندى أجريت عليك ، وإلا فانظر أىَّ المواضع أحب إليك فأكتب لك فاختار سندر مصر ، فكتب له إلى عمرو بن العاص أن يحفظ فيه وصية رسول الله - ﷺ - فلما قدم إلى عمرو بن العاص أقطعه أرضاً واسعة وداراً فكان سندر يعيش فيها ، فلما مات ، قبضت فى مال الله)[٤٠، ٤١] .

نزعة التماسّ بالجنس الآخر شملت الأحرار والعبيد ونرى أن محمداً قابل العبد الذى همّ بالزنا بجارية سيده بالرفق واللين ، خاصة وأن سيده عاقبه عقاباً صارماً . وفى المجتمع اليثربى كان النسوان والرجال على قدم المساواة فى السعى إلى الالتقاء بالآخر وفى الصور السابقة كان

الذُكران هم أصحاب المبادرة ولكن الخبر الذى نسوقه بعد قليل يثبت أن النساء لم يكنّ أقل إقداماًعلى ذلك ولمَ يُحل الحياء الأنثوى المعروف دون اتخاذ الخطوة الأولى لشدة النزعة :

- (عن عبيد الله بن عتبة عن أبى هريرة وزيد بن خالد وشبل قالوا : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال : أنشدك الله إلا قضيت بيننا بكتاب الله فقال خصمه وكان أفقه منه صدق وإذن لى يا رسول الله أن أتكلم فقال له رسول الله - ﷺ - قل ، فقال : إن ابنى هذا كان عسيفاً (= أجيراً) على أهل هذا فزنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة وخادم وإنى سألت رجالاً من أهل العلم فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله - ص- والذى نفسى بيده لأقضين بينكم بكتاب الله المائة شاة والخادم رد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ويا أنيس اغدُ على امرأة هذا فسلها فإن اعترفت فارجمها فاعترفت فرجمها)[٤٢،٤٣] .

ولا يقال إن المرأة كانت مكرهة أى أن العسيف (الأجير) قد أكرهها لأنها لو كانت كذلك لما أمر محمد برجمها لأن الإكراه يرفع الحد ولقالت لأنيس ذلك عندما طلب منه محمد أن يذهب إليها ليسألها فإن اعترفت رجمها ، إذن الفعل تم برضاها ولما كان شريكها عسيفاً (أجيراً) لديها = لدى زوجها فلاشك أنها هى التى أغرته على ذلك سواء بالقول أو بالحركات أو باللين . . ألخ لأنَّ الأجير لا يجرؤ على الاقتراب منها بدون ذلك ؛ الخلاصة أن الخطوة الأولى كانت من قِبَلها ، تحت تأثير النزعة المشبوبة لدى أفراد ذلك المجتمع من الجنسين ، وفى بعض الأحيان كان ذلك الدافع من القوة بحيث يجبر صاحبه ليس على تحطيم (النصوص المقدسة) فحسب بل على تجاوز الحد الأدنى من الالتزام الخلقى الذى ينبع من الفطرة السوية :

- (عن البراء بن عازب قال : مرّ بى عمى الحارث بن عمر ومعه راية فقلت أين تريد ؟ فقال : بعثنى رسول الله -ﷺ- إلى رجل نكح امرأة أبيه فأمر أن أضرب عنقه وأخذ ماله) [٤٤، ٤٥] .

وتلك الواقعة تكررت وذكرت المصادر تكرارها ما يقطع بأنها كانت شائعة مألوفة .

- (عن معاوية بن قرة عن أبيه قال : بعثنى رسول الله -ﷺ- إلى رجل تزوج امرأة أبيه أن أضرب عنقه وأصفّى دمه وفى رواية أخرى وأصفّى ماله)[٤٦] .

وكان الزواج من أرملة الأب معروفاً وليس منكراً فى «المجتمع اليثربى» وهو ما يسمى فى علم الإجتماع بـــ «وراثة النساء» ثم جاء الإسلام فحرمه وسمَّاه (فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً)[٤٧] . ولاشك أن الذين مارسوه سواء فى هاتين النازلتين أو فى غيرهما لا يجهلون ذلك ولكن يبدو أن تلك العادة كانت متمكنة وذات جذور ضاربة فى الأعماق خاصة وأنه يحقق الرى وإطفاء الشهوة بلا مقابل للرجل : والمرأة تجد لدى الابن من الفتوة والشباب والقوة ما يعوضها عن ضعف أبيه وهرمه ، خاصة وأن الرجال فى ذلك المجتمع كانوا يحرصون على أن تكون الزوجة الثانية والثالثة . . . صغيرة السن ليمتع نفسه بها غير عابىء بالفارق فى العمر الذى يصل فى أحيان كثيرة إلى ثلاثين أو أربعين عاماً فلما يموت تسعد بالالتقاء مع ابنه الذى قد يكون نديداً لها أو أصغر منها ليعطيها ما كانت محرومة منه أيام أبيه .

والعقوبات الصوارم التى أمر بها محمد : التصفية الجسدية وإستصفاء المال تشى بأن المسألة لم تكن فردية بل جماعية أو جمعية أى

متكررة ومتواترة - ولكن فى بعض الأحيان يكون طرفا العلاقة (= امرأة الأب والابن) أكثر دهاءً فلا يعقدان نكاحاً ، ولكن المباشرة بينهما تتم فى الخفاء والكتمان :

- (قال أُبىُ بن كعب : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - فقال : إن فلاناً يدخل على امرأة أبيه فقال أبىّ : لو كنت أنا لضربته بالسيف ، فضحك النبى - ﷺ - وقال : ما أغْيَرك يا أُبى ، إنى لأغْيَرُ منك والله أغير منى)[٤٨]

وواضحُ من سياق الحديث أن الرجل يدخل على زوجة أبيه دخولاً مريباً وكانت تسعد بذلك بل ربما كانت تسعى إليه وتشجعه وأن الريبة هى التى دفعت الشاكى إلى تقديم شكواه إلى محمد ، وهناك ملحظ على درجة كبيرة من الأهمية وهو أنَّ الخبر لايُفهم منه أن الأب متوفى ، لعلّه كان مسافراً فى تجارة أو سَرِيَّة فانتهز الابن فرصة غيابه واتصل بزوجته ؛ إلى هذا الحد بلغ طغيان وازع الاتصال بالآخر : نكاح أرملة الأب أو مخادنة زوجته عندما يولى ظهره ويغيب عن بيته !!

لم يفلت من هذا النزوع العارم نحو الآخر صحاب ذوو أسماء لوامع :

- (عن خوات بن جبير بن النعمان عن أبيه قال :

خرجت مع النبى - ﷺ - فى غزوة فخرجت من خبائى فإذا بنسوة حولى فلبست حُلّة ثم أتيتهن فجلست إليهن أتحدث معهن ، فجاء النبى - ﷺ - فقال : يا جبير ما يجلسك هنا ؟ قلت : يارسول الله بعير لى شرد)[٤٩، ٥٠] .

هذا الصحابى خارجٌ فى غزوة ومعه محمد أو هو مع محمد أى قريب منه ولكن كل ذلك يهون فى سبيل الإتصال بالآخر فسارع بلبس حُلّة - لزوم التأنق - وأتى إلى النسوة وجلس إليهن يسامرهن ويبادلهن أطراف الحديث الشهى لعل الحديث يجروراءه ما هو أعمق ، ولما يضبطه محمد متلبساً وينكر عليه جلوسه ذاك لا يتورع أن يدّعى أن سبباً آخر هو الذى دفعه لذلك وهو شرود بعيره ، ومن البديهى أن ذلك لم يفت على فطنة محمد فكان كلما يراه ، يسأله : ما فعل بعيرك - ولم يحدثنا الخبر عما إذا كانت تلك النسوان صواحب جبيرهنّ زوجات الخارجين فى الغزوة أو من الجيرة - ولعله مما لفت النظر أنهن لم يجدن غضاضة فى الجلوس مع جبير والتحدث معه مما يقطع بأن ذلك المجتمع لم يكن مغلقاً كما تحاول كتب المتأخرين أن تصفه .

- (حدثنا عمر بن أبى قيس عن عاصم عن عكرمة عن حمنة بنت جحش أنها كانت مستحاضة وكان زوجها يجامعها) (٥١) .

(وحمنة هذه أخت زينب بنت جحش التى تزوجها محمد بموجب آية من القرآن بعد أن كانت عند زيد ابنه ثم مولاه وحمنة كانت زوجاً لمصعب بن عمير ، قُتل عنها يوم أحد فتزوجها طلحة بن عبيد الله)(٥٢) . وكلاهما من أكابر الصحابه فالأول أرسله محمد قبل هجرته ليثرب ليقرىء اليثاربة القرآن ولذا أطلق عليه لقب «المقرىء» ولعب دواً بارزاً فى إدخال عدد من زعمائهم فى دين محمد أما الآخر فهو من مجلس (العشرة المبشرين بالجنة» وهو «مجلس شورى محمد» والصورة الإسلامية لـ «ملأقريش» حاكم مدينة القداسة : مكة قبل الإسلام ، وسواء كان هذا أم ذاك فقد كان لا يجد غضاضة فى مباطنة حمنة وهى مستحاضة .

أما عمر بن الخطاب فقد أقدم على ما هو أو عر [٥٣] :

- (عن عبد الحميد بن زيد بن الخطاب قال : كان لعمر بن الخطاب امرأة تكره الجماع فكان إذا أراد أن يأتيها اعتلّت عليه بالحيض ، فوقع عليها ، فإذا هى صادقة ، فأتى النبى - ﷺ - فأمره أن يتصدق بخُمس دينار)[٥٤] .

هنا حديث أُسَرِىّ أى راويه من أسرة صاحب الخبر فعبد الحميد هو ابن أخى عمر ومعرفةُ ما إذا كانت المرأة حائضاً ليست معضلة فالحيض له رائحة نفّاذة ولون دمه متميز ولكن ابن الخطاب لم يستطع أن يكبح جموح شهوته حتى بعد أن تثبَّت من صدق زوجته وإنها فعلاً كانت حائضاً .

وهناك أخبار تدل على أن الدافع كان متوهجاً لدى ابن الخطاب :-

- (عن ابن عباس قال : جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله -ﷺ- فقال يارسول الله : هلكت قال : ما الذى أهلكك قال : حولت رحلى البارحة فلم يرد عليه شيئاً فأوحى الله إلى رسوله هذه الآية (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) ، أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة)[٥٥، ٥٦، ٥٧] .

الخبر يدل على أن ابن الخطاب من الذين يتلذذون بالمرأة مستلقية أو مقبلة أو مدبرة والذين يفرشونها فرشاً مؤثراً ولقد أيده محمد بآية من القرآن فى إتيان المرأة مدبرة (مع تجنب الدبر) ومن ساعتها أصبحت رخصة لا لعمر وحده ولكن للمسلمين كافة ومن الملاحظ أن محمداً قال لابن الخطاب (اتقِ الحيضة) لأنه جامع إحدى زوجاته وهى حائض كما ثبت فى الخبر الذى سقناه فهو يلفت نظره لعدم تكرار ذلك مرة أخرى .

حتى وهو صائم لم يكن ابن الخطاب يملك نفسه أو يسيطر عليها :

- (عن جابر أنّ عُمَرَ قال : هششت فقبّلت وأنا صائم ، فقلت : يارسول الله صنعت اليوم أمراً عظيماً قبلت وأنا صائم فقال : أرأيت لو تمضمضت من الماء وأنت صائم ؟ ؛ قلت لا بأس ، قال : فمه)(٥٨) .

والصائم يكون فى حالة روحية سامية لأن الصيام لله وهو الذى يجزى به كما أخبر محمد ومن ثم لا يفكر الصائم حتى فى مقدمات الجماع مثل التقبيل لأن مثل هذه الأفعال تنافى روحانية الصوم ولكن يبدو أن ابن الخطاب كان له رأى آخر و تفسير مغاير للصيام -

ومما يؤكد أن دافع الالتقاء بالأنثى كان متقداً عند ابن الخطاب هو الخبر الآتى الذى قبل أن نسطره نبدأ بمقدمة شارحة :

عندما شرع الصيام كان يحرم على المسلم الأكل والجماع بعد أن ينام فى الليل ، بمعنى أنه إذا نام لايحل له الطعام والشراب والاقتراب من الزوجة حتى يصبح ، ولكن أصحاب النوازع المتوهجة فى الالتقاء بالجنس الآخر مثل ابن الخطاب لم يعبأوا بهذا التحريم وتجاوزوه :

- (عن ابن عباس قال : إن الناس كانوا قبل أن ينزل فى الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون ويحل لهم شأن الناس فإذا نام أحدهم لم يطعم ولم يشرب ولم يأت أهله حتى يفطر من القابلة ، فبلغنا أن عمر بن الخطاب نام ووجب عليه الصوم ووقع على أهله ثم جاء إلى النبى - ص- فقال : أشكو إلى الله وإليك الذى صنعت ؟ قال : ما صنعت ؟ قال : إنى سولت لى نفسى فوقعت على أهلى بعد ما نمت ، وأنا أريد الصوم ، فزعموا أن النبى - ﷺ - قال : ما كنت خليقاً أن تفعل ، فنزل الكتاب : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) ؛ وفى رواية : قام

عمر بن الخطاب رضى الله عنه - فقال : يارسول الله إنى أردت من أهلى البارحة ما يريد الرجل من أهله ، فقالت : إنها قد نامت ، فظننتها . تعتلّ فواقعتها ، فنزل فى عمر (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) .

وفى رواية ثالثة : فرجع عمر بن الخطاب من عند النبى - ﷺ - ذات ليلة قد سمر عنده فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت : إنى قد نمت فقال : ما نمت ثم وقع بها)(٥٩، ٦٠، ٦١) .

هذا الخبر برواياتة المختلفة التى حملتها مصادر موثوقة يثير عدة أمور :

أ - أن ابن الخطاب لا يتورع عن إتيان أهله سواء بعد نومه هو أو نوم الزوجة رغم أنه ، يعلم تمام العلم أن ذلك منهى عنه ومحرم . . . .إلخ .

ب - أنه يرمى زوجه بالكذب عندما تخبره أنها نامت ليحلل وقوعه عليها .

ج - أن محمداً عاتبه على ذلك بقوله له (ماكنت خليقاً أن تفعل) .

د- يقول عمر «إنى أردت من أهلى البارحة ما يريد الرجل من أهله» وهى عبارة بالغة الدلالة وتفصح عن نظرة الرجل إلى المرأة فى ذلك المجتمع الأمى فكل ما يريده منها هو المفاخذة فلا يريد منها : مسامرة لطيفة أو مشاورة فى أمر عام أو خاص . . . لأنها فى نظره مجرد ماعون يفرغ فيه شهوته .

هـ - أن محمداً للمرة الثانية على التوالى يحل لعمر الورطة(٦٢) التى وقع فيها بأن يتلو آية قرانية وقد سبق أن رأينا أن ذلك حدث عندما حول

ابن الخطاب رحله وأتى امرأته وهى مدبرة (مع تجنب الدبر) .

- (روى الشافعى فى مسنده عن زينب بنت أبى سلمة أنها إرتضعت من أسماء إمرأة الزبير قالت : فكنت أراه أباً وكان يدخل علىّ وأنا أمشط رأسى فيأخذ ببعض قرون رأسى ويقول أقبلى علىّ)[٦٣] .

والزبير من أكابر الصحابة وهو زوج أسماء بنت أبى بكر أخت عائشة وزينب بنت أم سلمة إحدى زوجات محمد .

***

ونظراً لإن التقاء الذكر بالأنثى والأنثى بالذكر طقس يومى من الطقوس الاجتماعية المعتادة فى «مجتمع يثرب» فقد إضطر محمد دفعاً للحرج عن أصحابه أن يبيح لهم أن يسيروا فى المسجد وهم جنب :

- (عن زيد بن أسلم قال : كان أصحاب رسول الله - ﷺ - يمشون فى المسجد وهم جنب)[٦٤] . ولو كانت حالة الجنابة فردية لما صرَّح بذلك ولكن هذا التصريح يفيد أن الحالة كانت جماعية وبدرجة شديدة الكثافة بحيث لو حُظِرَ المشى فى المسجد مع الجنابة لأحدث إرتباكاً فى صفوف الصحبة خاصةً وأن المسجد آنذاك كان يستعمل لغير الصلاة وذلك وراثة عن المسجد الحرام ودار الندوة قبل ظهور الإسلام[٦٥] .

وكانت بعض الوقائع على درجة معقولة من الجنوح :

- (روى جابر قال : . . . . فخطبت إمرأة فكنت أتخبأ لها حتى رأيت ما دعانى إلى نكاحها)[٦٦، ٦٧] .

ما الذى دفع جابر بن عبد الله وكان من المقربين لمحمد إلى أن يتخبأ ليرى ما يدعوه إلى نكاحها ، لأن المرأة - على الأقل - كانت تكشف

وجهها وكفيها - إذن كان يريد أن يرى غيرهما مما لا تظهره المرأة إلا فى المنزل وهو ما يحتاج لمن يريد أن يطّلع عليه إلى التخبؤ لأنها لو فطنت إليه لخبأته عنه ، هذه الأجزاء المستورة هى ما عبرّ عنها جابر : حتى رأيت «ما دعانى إلى نكاحها» فلما أعجبته تزوجها .

***

ولم تكن «التجاوزات» مقصورة على مشاهير الصحابة ممن ذكرنا بعضهم على سبيل المثال بل تعدتهم إلى صحابيات معروفات . بل ومقربات إلى محمد :

- (عن عبد الرحمن بن أبى رافع أن أم هانى بنت أبى طالب خرجت متبرِّجة قد بدا قرطاها فقال لها عمر بن الخطاب : اعملى فإن محمداً لايغنى عنك شيئاً فجاءت إلى النبى -ﷺ- فأخبرته فقال رسول الله - ص- : مابال أقوام يزعمون أن شفاعتى لا تنال أهل بيتى . . تنال حاوحكَم)[٦٨] . حاوحكم قبيلتان . إن تبُرَج أم هانىء بنت أبى طالب أخت علىّ وبنت عم محمد ، أفزع عمر بن الخطاب حتى لفت نظرها إلى أن محمداً لا يغنى عنها شيئاً أى يوم الحساب فتشكوه إلى محمد - فيصرِّح محمد بأن له شفاعة أكيدة يوم القيامة وأن أول من تنالهم هم أهل بيته أى بنى هاشم ، فهو لم ينف واقعة تبرجها ولم يخطّىء ابن الخطاب فى لفت نظرها إلى ذلك ولكنه أخذ عليه إنكاره شفاعته وأنها ستشمل بنى هاشم وأم هانىء منهم أى أن تبرج أم هانىء مغفور لها بالشفاعة المحمدية .

ولكن ما الذى يدعو أم هانىء وهى مَنْ هى إلى التبرج ؟ إنها بلاشك ضواغط «مجتمع يثرب» .

***

هذه الفصلة نفردها لصحابيين من ذوى الشهرة لكل منهما قصة تدخل فى نطاق هذا الموضوع ، وقد اشتركا معاً فى الحكاية الأولى أما الأخرى فقد انفرد بها أحدهما وهو الأعلى مكانة والأذيع صيتاً والأكثر تقديراً .

والخبران موثقان توثيقاً محكماً وقدوردا فى العديد من الدواوين والكتب التى تكاد تبلغ حد القداسة ومن ثم لا يرقى إليها شك ولا تقرب منها ريبة .

أما أولهما فهو المغيرة بن شعبة :

فهو - بادىء ذى بدء من كتَّاب محمد أى الذين كانوا يكتبون له الرسائل التى يمليها عليهم وكان لا يفعل ذلك إلا مَنْ كان يحوز على الثقة بعد أن خان أحدهم الأمانة وارتد وهرب إلى مكة وادّعى أنه كان يحّرف ألفاظ القرآن التى كان يمليها عليه محمد - واتصاف المغيرة بأنه من كتاب محمد مسألة متواترة جاءت فى الكتب التى تناولت حياة الصحابة وأحوالهم منها كتاب «أسد الغابة فى معرفة الصحابة»[٦٩] .

- (قال المغيرة بن شعبة : حصَّنت تسعاً وتسعين امرأة ما أمسكت فيهن واحدة منهن واحدة على حب ، ولكنى أحفظها لمنصبها وولدها ، فكنت أسترضيهن بالباه شاباً ، فلما أن شبت وضعفت عن الحركة أسترضيهن بالعطية)[٧٠] .

والخبر صحيح فى أن مجتمع يثرب الذى عاش فيه المغيرة ملازماً لمحمد إذ عمل كاتباً له بعبارته لايعبأ بالحب بين الرجل والمرأة ورغم سمو هذه العاطفة فلم يكن لها أقل موضع فى ذاك المجتمع إنما مدار العلاقة بين الطرفين ومحورها كان أمرين : الباه أى قوة الجماع والمال فهما السبيل

لاسترضاء إناث ذاك المجتمع فإذا كنت شاباً استطعت أن تروضهن وتسترضيهن بالباه أما إن كنت شيخاً اضمحلت قوتك ووهنت حركتك فليس أمامك إلا الأموال والهدايا والعطايا ، ولعلنا لاحظنا : أن الباه جاء فى المقام الأول بعبارة أحد الفاعلين البارزين فى ذلك المجتمع - وكل خبر نسوقه يؤكد الفكرة التى تتمحور عليها دراستنا هذه . ثم نعود إلى سياق الخبر :

نحن لا نعوِّل كثيراً على ما أورده الجاحظ - مع تقديرنا البالغ له ولمكانته فى الفكر والأدب - لأننا إنما نعتمد فى هذه الدراسة على المصادر التراثية التى تلقتها الأمة بالترحاب والتجِّلة والتى ربما تبلغ حد القداسة ومؤلفات الجاحظ ليست كذلك مع نفاستها الشديدة وذلك لأمرين :

أ - ربما دفعته نزعته الأدبية إلى المبالغة والتهويل .

ب - ما عرف عنه من وجهة إعتزالية تجعله غير مقبول لدى أهل السنة والجماعة .

نسطر ذلك حتى نقطع السبيل على أى فلحاس[٧١] حتى لا يصيح ناعقا أو ينعق صائحاً أن مصادرنا هى كتب الأدب والنوادر والأمالى - مع تقديرنا لها جميعها وأنها جزء من تراثنا الذى نعتز به - ويترك عشرات المصادر الأخرى ويتمسك بهذا المصدر اليتيم ؛ وإذا كان القارىء يستهول أن يكون المغيرة بن شعبة قد أحصن تسعاً وتسعين زوجة ويرى أن ذلك مبالغة فاضحة من الجاحظ فإننا نورد فيما يلى ما جاء به كتاب تراثى صاحبه من الذين أرخوا للصحابة وهو موضع تقدير من الأمة ، وهو كتاب «الإستيعاب فى معرفة الأصحاب» لِ ابن عبد البر :

- (قال : حدثنا سحنون عن ابن نافع قال : أحصن المغيرة بن شعبة

ثلاثمائة إمرأة فى الإسلام ، قال ابن وضَّاح : غير ابن نافع يقول : ألف إمرأة)[٧٢] ، ولاشك أن فى كلا الرقمين مبالغةً وبذلك نكون قد ظلمنا الجاحظ إذ رميناه بالتهويل لأنَّ ما ذكره لا يبلغ ثلث الأول وعُشر الآخر .

ومع ذلك إذا سرنا فى سبيل اتهام الجاحظ بالمبالغة وقلنا إن المغيرة أحصن - فى الإسلام وحده - نصف العدد أى خمسين امرأة فحسب ألايدل ذلك على أن نزعة التلاقى بالجنس الآخر أو بتعبير ابن شعبة ذاته (الباه) كانت فى ذلك المجتمع متوقدة ومتوهجة بل ومشتعلة بصورة قلّ أن نرى لها مثيلاً فى المجتمعات الأخرى قديماً وحديثاً ! ! .

***

حكاية المغيرة مع أم جميل :

يبدو أن الباه عند المغيرة بن شعبة كان مشبوباً بطريقة غير عادية فرغم أنه تزوج ذلك العدد من الزوجات فإنه لم يكتف بذلك بل :

- (جعل يختلف إلى امرأة من بنى هلال يقال لها أم جميل بنت محجن بن الأفقم بن شعينة بن الهزم وكان لها زوج من ثقيف يقال له الحجاج بن عتيك ، فبلغ ذلك أبا بكرة بن مسروح مولى النبى - ﷺ - من مولدى ثقيف وشبل بن معبد بن عبيد البجلى ونافع بن الحارث بن كلدة الثقفى وزياد بن أبيه (الذى ألحقه معاوية فيما بعد بأبيه سفيان بن حرب .إ .هـ) فرصدوه حتى إذا دخلوا عليه هجموا عليه فإذا هما عريانان وهو متبطنها ، فخرجوا حتى أتوا عمر بن الخطاب فشهدوا عنده بما رأوا ، فقال عمر لأبى موسى الأشعرى : أنى أريد أن أبعثك إلى بلد قد عشش فيه الشيطان قال فأعنِّى بعدة من الأنصار ، فبعث معه البراء بن مالك وعمران بن الحصين وأبا نجيد الخزاعى وعوف بن وهب الخزاعى ،

فولاّه البصرة وأمره بإشخاص المغيرة فأشخصه بعد قدومه بثلاث .

فلما صار إلى عمر جمع بينه وبين الشهود ، فقال نافع بن الحارث : رأيته على بطن المرأة يحتفز عليها ورأيته يدخل مامعه ويخرجه كالميل فى المكحلة ثم شهد شبل ابن معبد على شهادته ثم أبو بكرة ثم أقبل زياد رابعاً ، فلما نظر إليه عمر قال : أما أرى فيه وجه رجل أرجو ألا يُرجم رجل من أصحاب رسول الله - ﷺ - على يده ولا يخزى بشهادته ، وكان المغيرة قدم من مصر فأسلم وشهد الحديبية مع رسول الله - ﷺ - فقال زياد : رأيت منظراً قبيحًا وسمعت نَفَساً عالياً وما أدرى أخالطها أم لا ويقال : لم يشهد بشىء .

فأمر عمر بالثلاثة فجلدوا ، فقال شبل : أتجلد شهود الحق وتبطل الحد ، فلما جُلد أبو بكرة قال أشهد أن المغيرة زان ، فقال عمر : حدّوه ، فقال علىّ : إن جعلتها شهادة فارجم صاحبكَ ، فحلف أبو بكرة ألا يكلم زياداً أبداً وكان أخاه لأمه سمية ، ثم إن عمر ردَّهم إلى مصرهم)[٧٣] .

أما عز الدين ابن الأثير الجزرى فيروى الواقعة باختصار :

- (روى أبو عثمان النهدى قال : شهد أبو بكرة ونافع يعنى ابن علقمة وشبل بن معبد على المغيرة أنهم نظروا إليه كما ينظرون إلى المرود فى المكحلة فجاء زياد (بن أبيه) فقال عمر : جاء رجل لا يشهد إلا بالحق : رأيت مجلساً قبيحاً وانتهازاً - وفى رواية : رأيت إستاتنبو ونفساً يعلو وساقين كأنهما أذنا حمار ولا أعلم وراء ذلك فجلدهم عمر)[٧٤] .

أما صاحب «الاستيعاب» فقد روى الواقعة فى أكثر من موضع نكتفى باثنين :

فى ترجمة أبى بكرة :

(وكان من فضلاء الصحابة وهو الذى شهد على المغيرة بن شعبة فبت الشهادة وجلده عمر حَّد القذف إذ لم تتم الشهادة)[٧٥] .

وكذلك فى ترجمة زياد بن أبى سفيان :

ـ (فلما شهد على المغيرة مع أخيه أبى بكرة وأخيه أبى نافع وشبل ابن معبد وحدّ عمر ثلاثتهم دونه إذ لم يقطع الشهادة وقطعوها)[٧٦] .

والخبر مشهور ورد فى العديد من كتب السير والتواريخ ولا مطعن عليه – والمغيرة وقت حدوث الواقعة كان والياً للبصرة وهو بلا شك آنذاك قد جاوز الأربعين وقارب الخمسين (على أقل تقدير) ومع ذلك يقارف تلك الفعلة وعنده ولاشك أربع زوجات خلاف الإماء والجوارى وملك اليمين ، فكيف كان حاله وهو شاب قوى فى العشرين من عمره ، ولم يراع أنه حاكم المصر وأحد الصحابة الذين يعتبرهم المسلمون قدوة وأسوة ! ! !

والذى لا مرية فيه أن ابن الخطاب مارس نفوذه كخليفة لدى الشاهد الرابع زياد وأوحى له بالعبارات التى قالها إن المغيرة من صحب محمد وإنه سوف يُرجم إذا شهد بذات شهادة الثلاثة الذين سبقوه فوعاها زياد جيداً خاصة وأنه كان عاملاً لعمر على بعض صدقات البصرة[٧٧] أى كان موظفاً لدى عمر ، فشهد (= زياد) شهادة مائعة[٧٨] فأفلت المغيرة من الرجم وأقيم الحّد على الشهود الثلاثة وعلى رأسهم أبو بكرة الذى قال فى حقه الحسن البصرى سيد التابعين (لم ينزل البصرة من الصحابة ممن سكنها أفضل من عمران بن الحصين وأبى بكرة)[٧٩] . ومن الطريف أن زياداً لقى جزاءه على يد ابن الخطاب نفسه إذ عزله من عمله الذى ذكرناه

آنفاً لأن ابن الخطاب قدّر أن الذى يلّون شهادته لا يصعب عليه أن يغَل فى الصدقات[٨٠] . لقد عزّ على عمر أن يُرْجَم أحد الصحابة بتهمة الزنا ولكنّ توقيع الحدود والحكم بالعدل والشرع أولى ليعرف المسلمون جميعهم وغيرهم أن الناس كلهم سواسية أمام الأحكام لافرق بينهم ، وحتى إذا سلمنا جدلاً أن ما أتاه المغيرة مع أم جميل (التى لم يعبأ أن زوجها من قبيلته ثقيف) لا يبلغ حد الزنا ولكنه يشكّل أفعالاً عديدة تحرمها الشريعة ، التى أعلنها محمد منها : دخول بيت مسلم فى غيابه والخلوة بزوجته ، التعرِّى فى بيته ، وتعرية زوجته والنظر إليها عارية كما ولدتها أمها والالتصاق بها والاستمتاع بها (دون أن يبلغ حد الجماع) . . إلخ .

أليست كل هذه مخالفات جسيمة للشرع كانت توجب على ابن الخطاب أن يعزّر المغيرة ، لم يفعل عمر شيئاً من ذلك بل على العكس كافأ المغيرة إذ نقله من ولاية البصرة إلى ولاية الكوفة[٨١] . . ! !

هذه هى الواقعة التى اقترفها ابن شعبة :

صحابى كان يكتب لمحمد أى ملازماً له ومنذ دخوله الإسلام فى صلح الحديبية وهو لزيق به ثم يولّيه عمر على أحد الأمصار وكان فى تلك الأيام فى نهاية مرحلة الكهولة وبداية الشيخوخة وتزوج عدداً لا يحصى من الزوجات خلاف ملك اليمين ومع هذا يقدم على ذلك أليس هذا دليلاً ناصعاً على عرامة (٨٢) النزوع للآخر وحِدّته وشدته لدى أفراد ذلك المجتمع ؟؟

أما الآخر فهو : عمر بن الخطاب :

الواقعة التى سنسطرها بعد قليل حدثت من ابن الخطاب وهو خليفة ، إذ كان يشعر بسخط «بنى هاشم» لتوليه وأبى بكر من قبله الخلافة

وهما من فرعى «تيم وعدىّ» أقل مقاماً بما لا يقاس فى قريش منهم ، فخطب إبنةً لعلى من فاطمة بنت محمد ، أراد بذلك أن يضرب عصفورين بحجر واحد أى يحقق هدفين :

أ - أن يمتص غضب الهاشميين - رهط محمد وأحق الناس بخلافته فى ملكه كما صرحوا بذلك مراراً على ألسنة كبرائهم - وذلك بأن يُصهر إلى علىّ مرشحهم الرئيسى لتولى الخلافة .

ب - أن يمتّع نفسه بعد أن صار خليفة وحاكما على الإمبراطورية الإسلامية التى بدأت تتخلق ملامحها وبعد أن تدفقت الغنائم من البلاد الموطوءة بحد السيف وطفق الصحاب يجنون الثمار الشهية والتى ما كانوا يحلمون بها من غزواتهم وفتوحاتهم . وهناك خبر مشهور «جُعل رزقى تحت سيفى أورمحى» وكانت لعلىّ «ابنة صغيرة تعد نديدة لحفيدات ابن الخطاب ، والهاشميات وهن من ذؤابة قريش أى أرستقراطيتها كن يتميزن بالجمال الفائق وقد رأينا منذ قليل كيف كانت أم هانىء (عمة أم كلثوم) تتبرج لتظهر جمالها حتى خاشنها عمر فشكته لابن عمها محمد . .

ونذكر بيت الشعر الذى يسجل وضاءة الهاشميات :

«بعيدة مهوى القرط إمّا . . لنوفل أبوها وإمَّا لِ عبدمناف والهاشميات يدخلن تحت دوحة «عبدمناف» .

لقى ابن الخطاب مناوأة من علىّ وعقيل (عم البنت) والحسن والحسين (شقيقيها وحفيدى محمد الأثيرين) ولكن عُمَرَ أخذ يداور ويناور ويضغط واستثمر سلطانه كخليفة وحاكم بأمره وبيده المنع والمنح وأن له وحده تحديد الأنصبة التى تخص كلاً منهم من الغنائم الأسطورية

التى تدفقت على يثرب وأدارت رؤوس الصحبة وأولادهم وتلك الغنائم فى واقع الأمر هى ناتج عرق الفلاحين والعمال والشغيلة فى البلاد التى وطئوها بقوة السلاح . ولم يكتف ابن الخطاب بذلك التلويح أو التلميح بل لجـأ إلى «ذهـب المعـز» فأغرى علياً وبنيه بصداق قدره أربعون ألف درهـم (٨٣) فى الوقت الذى كان فيه يشجب ظاهرة المغالاة فى المهور التى ضربت «المجتمع اليثربى» نتيجة وصول الأموال الوفيرة إلى أيديهم فتغيرت أحوالهم الإقتصادية ولكن العادة جرت على طول التاريخ أن ما يعظ الحاكم به «رعيته» شىء وما يفعله هو وأهل بيته شيء مغاير تماماً فلا بأس أن يقف ابن الخطاب على المنبر ويحث الرعيّة على عدم المغالاة فى المهور ثم ينزل من على المنبر ويسوق إلى علىّ أربعين ألف درهم نِحْلة أى مهراً لابنته الصغيرة الجميلة أم كلثوم ! ! !

وأثمرت أساليب ابن الخطاب المتبانية وأفلحت فى شل معارضة عقيل والحسن والحسين وإستطاع أن يفوز بزواج الطفلة الوضيئة :

- (كان عمر قال لعلىّ : زوّجنى يا أبا الحسن فإنى سمعت رسول الله -ص- يقول : كل نسب وصهر منقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى . . فزوجه أم كلثوم .

وفى رواية : أنَّ عمر بن الخطاب خطب أم كلثوم فقال علىّ : إنها صغيرة فقال عمر : يا أبا الحسن زوجنيها فإنى أرصد من كرامتها مالا يرصدها أحد ، فقال علىّ أنا أبعثها إليك فإن رضيت فقد زوجتكها ، فبعثها إليه ببرد وقال لها : قولى له : هذا البُرد الذى قلت لك فقالت ذلك لعمر فقال : قولى له قد رضيته رضى الله عنك ، ووضع يده على ساقها فكشفها فقالت له : أتفعل هذا ؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك ثم خرجت حتى جاءت أباها وأخبرته بالخبر وقالت : بعثتنى إلى

شيخ سوء ! فقال : مهلاً يا بنية فإنه زوجك)[٨٤] .

إن كشف عمر لساق البنت ثابت فى عدة مصادر ، منها ما أورده ابن قدامة فى موسوعته الفقهية «المغنى» :

- (وقد روى عن سعيد عن سفيان عن عمرو بن دينار عن أبى جعفر قال : خطب عمر بن الخطاب إبنة علىّ فذكر منها صغراً فقالوا إنما ردَّك فعاوده فقال نرسل بها إليك تنظر إليها فكشف عن ساقيها فقالت : أرسلْ (أى إرخ ثوبى) لولا أنك أمير المؤمنين للطمت عينك)[٨٥] .

فى ذلك المجتمع المتوقد بنزعة مخالطة الآخر كان الساق هو ميزان أنوثة المرأة فإن كان خدلجاً[٨٦] . دلّ ذلك على أنها وعاء ممتاز للمباضعة والمفاخذة والمباطنة . . . وفى سيرة الصحابى بُسْر بن أرطأة وكان من شيعة معاوية الأوفياء وفعل بشيعة علىّ الأفاعيل ومن بينها أسر المسلمات وبيعهن جواريَ - فى السوق وذلك لأول مرة فى تاريخ الإسلام كان المشترون قبل الشراء يكشفون عن ساقى المرأة المسلمة قبل شرائها من أعوان بُسْر فإن وجدوهما ممتلئتين أتموا الصفقة وإلافلا ، لأن امتلاء الساقين كان علامة فارقة فى هذا المضمار[٨٧] .

لذا لما أرسل علىّ ابنته أم كلثوم إلى خطيبها ابن الخطاب بادر بمعاينة ساقيها حتى يتأكد من جودة البضاعة أو الصنف ؛ ولما كانت البنت حرةً وشريفة فأمها فاطمة بنت محمد ، فقد إستنكرت هذا الفعل من الخليفة وصاحت فى وجهه «أتفعل هذا ؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك ، وفى رواية «المغنى» : «للطمت عينك» وأسرعت إلى أبيها تشكو الشيخ الذى هو فى سن جدها ومع ذلك لم يتورَّع عن كشف ساقيها ! ! فارتبك علىّ ولم يجد ما يرد به على سخطها إلا قوله «مهلايا بنية إنَّه زوجك»

ليهدىء من ثورتها . . . فهى لم تصبح زوجته إذ أين العقد ومتى انعقد وأين الشاهدان والعلانية . . إلخ .

وأحسن الفروض أن أمير المؤمنين كان خاطباً لم يتجاوز بعد مرحلة الخطبة ، وهنا لعل القارىء يسأل :

هل يجوز للخاطب - حسب الشرع الذى حمله محمد إلى الناس - أن يكشف عن ساقى مخطوبته ويعاينهما ؟

وهل يمكن لأى خاطب أن يقتدى بعمر فى ذلك بإعتباره من النجوم الذين إذا إقتدى بهم المسلم اهتدى ؟ أم هى من خواص عمر وحده دون المسلمين ؟ أم أن عُمَرَ اعتمد فى ذلك على أنه ممن شهد بدراً وبايع تحت الشجرة فمهما فعل أو تجاوز فإن خطاياه مغفورة له خاصة وأنه من «العشرة المبشرين بالجنة» الذين لا تضرهم البتة أفعالهم ؟

أيا كان الأمر فإن الواقعتين اللتين صدرتا من إثنين من أكابر الصحابة . . . تقطع بتأكيد ما وثقناه من أن النزوع للآخر لدى أفراد ذلك المجتمع ذكوراً وإناثا كان دَّفاقاً ، ولذا فهو وضعَ الصحابة ذوى الرتب العوالى و «عامة المسلمين» فى كفتين متساويتين لأن الأولين فى نهاية المطاف ماهم إلا بشر تعتريهم كغيرهم النوازع الطبيعية وأنهم لا يستطيعون الانفلات من إكراهات المجتمع الذى يحيون بين جنباته .

* * *

من شدة ذلك الوازع على أعضاء «مجتمع يثرب» أنْ غطَّى على بصيرتهم فلم يفرقوا بين ما إذا كان المكان مما يجوز إظهاره فيه أو هل الميقات مناسب لإبدائه أم هل المهمة الموكولة إلى العضو تحتم عليه كتمانه أم لا .

لم يفرقوا بين ذلك كله بل إنه غلبهم حتى فى أشد الأماكن والأوقات قداسةً وفى أحرج الظروف وأدقها وأصعبها . . . فى المعركة . . أو إبّان تبليغ رسالة حَّملها محمد لهم :

– (من رواية يحيى بن عبد الله بن الحارث قال : لما دخل رسول الله –ص – مكة يوم الفتح قال سعد بن عبادة ما رأينا من نساء قريش ما يذكر من الجمال ؟ فقال النبى – ﷺ – : هل رأيت بنات أبى أمية بن المغيرة ؟ هل رأيت قريبة ؟(*) هل رأيت هنداً ؟ إنك رأيتهن وقد أُصِبْن بآبائهن .

لم يشغل فتح مكة وهو مرحلة فاصلة فى تاريخ فجر الإسلام الصحابى المعروف وأحد زعماء الأنصار وسيد الخزرج سعد بن عبادة أن يرنو ببصره متفحصاً نسوان قريش ثم يصدر حكمه بعد ذلك أنهن لسن على المستوى الذى يذاع عنهن من الجمال والوضاءة ؛ ولكن هذا الحكم لم يُرْض محمداً القرشى فيرد عليه أنك رأيتهن وهن فى حالة حداد على قتلاهن من الآباء والأبناء ويضرب له أمثلة على حسناوات قريش ومنهن هند بنت أبى أمية ، المعروفة بأم سلمة إحدى زوجاته التسع .

– (عن عبد الله بن الزبير عن الزبير أنه قال : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند بنت عتبة)(٨٨، ٨٩) .

والزبير أحد أعضاء «مجلس العشرة المبشرين بالجنة» أو «مجلس شورى محمد» الذى حل محل «ملأ قريش» الذى كان يحكم مدينة القداسة مكة قبل الإسلام وابن عمة محمد وأحد المقربين إليه ولا يقال

(*) قريبة هى بنت أبى المغيرة وهند هى كذلك بنت أبى أمية وهى أم سلمة زوج النبى ﷺ) .

KMH

دفعاً لنظر الزبير إلى خدم هند وصويحباتها أنه كان يريد أن يتأكد من هروبهن فكان يكفيه أن يراهن مدبرات مُولّيات ولا حاجة به بعد ذلك إلى تصويب بصره إلى سيقانهن أو خدمهن أو مواضع رباط سراويلهن أو خلاخيلهن ، وكان ذلك فى عركة أحد ، إحدى المعارك الهامة فى أول الإسلام .

- (قال خارجة بن جزيٍّ العذرى - يوم تبوك - سمعت رجلاً يقول يا رسول الله أيباضع أهل الجنة ؟)[٩٠] .

لم تمنع أهوال معركة تبوك هذا الرجل أن يسأل عن المباضعة فى الجنة ، أو لعله يريد أن يطمئن أنه لو استشهد ودخل الجنة هل فيها مباضعة وهل يستمر يباضع الحورية التى ستكون من نصيبه كما يفعل حالياً فى الدنيا مع زوجه أو زوجاته الأربع ! !

ألا يقطع هذا الخبر أن مفاخذة النسوان كانت لديهم هاجساً ملحًا يشغل عليهم حواسهم حتى فى أحرج الأوقات ؟

= (وأردف (= محمد) الفضل بن العباس بن عبد المطلب وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً فلما دفع رسول الله - ﷺ - مرت به ظُعُن أى نسوان - غالباً - ما يكُنَّ فى الهوادج - يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله - ﷺ - يده على وجه الفضل فحَوّل وجهه إلى الشق الآخر فأخذ ينظر فحّوّل رسول الله - ﷺ - من الشق الآخر على وجه الفضل فصرف وجهه من الشق الآخر)[٩١] .

- (عن عبد الله بن عباس قال : كان الفضل بن عباس رديف رسول الله - ص - فجاءته إمرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر

إليها وتنظر إليه فجعل رسول الله - ﷺ - يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر)[٩٢] .

كان ذلك فى حجة الوداع .

وهكذا وفى أقدس المشاعر والأوقات يصرُّ الفضل على أن يبصبص[٩٣] للحاجّات ورغم أن محمداً (ابن عمه) حَوَّل وجهه أكثر من مرة إلى الجهة الأخرى ، إلا أنه يعاود التطلع إليهن .

وعندما جاءت إمرأة خثعمية تقول الروايات إنها حسناء وضيئة إلى محمد تستفتيه فى أمور دينها ينتهزها الفضل فرصةً فيمعن النظر إليها وترد هى إليه التحية بأحسن منها فتحدّق ببصرها فيه ولا يرى محمداً بداً من فض هذا الاشتباك البصرى فيلفت وجه الفضل إلى الشق الآخر ولكن الأخير مُصِرٌ على البصبصة[٩٣] .

ويبدو أن الخثعميات كنّ آنذاك يتميزن بالملاحة والحُسن فهناك خثعمية هى أسماء بنت عميس تعاقب عليها خمسة أزواج من الصحابة من بينهم شقيقان هما جعفر وعلىّ ابنا أبى طالب و الحمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبى قحافة . وخبر الفضل والمرأة الخثعمية ورد فى جُلّ المصادر التراثية رفيعة الدرجة أى أن التشكيك فيه ضرب من المكابرة ، وهو مثل فاقع على طغيان تلك النزعة نزعة الالتقاء بالآخر من كلا الطرفين وأنها غَلّابة وقهّاره تهيمن على أفراد ذاك المجتمع فتجعلهم يحطمون فى طريقهم كل القيم ، فلا قدسية صحبة محمد ولا قدسية المكان ولا قدسية الزمان تقف حائلاً فى طريقهم ، ولعل طغيان تلك النزعة لدى أولئك تتضح جلية فى الإجابة عن السؤال الآتى : هل يجرؤ مسلم فى أيامنا هذه مهما بلغ إستهتاره على أن يبصبص إلى النسوان

الحاجّات فى المشاعر المقدسة ؟ وهل تجرؤ حاجّة مهما كانت درجة انحلالها - على أن تبادل حاجًا نظراتٍ مشبوبة فى يوم عرفة أو فى أيام منى ! !

- (عن يحيى بن كثير عن عطاء بن السائب قال : كنا عند عبد الله بن الحارث فقال : أتدرون لمن قال رسول الله - ﷺ - : «من كذب على فليتّبوأ مقعده من النار» قال : قلنا : لا ، قال إنما قال ذلك من قبَل عبد الله بن أبى جذعة أتى ثقيفاً بالطائف فقال : هذه حُلّة رسول الله - ﷺ - أمرنى أن أتبَّوأ أىّ بيوتكم شئت فقالوا : هذه بيوتنا فتبوأ أيها شئت ، فانتظر سواد الليل فقال : أتبَّوأ أى نسائكم شئت ، فقالوا : إنَّ عهدنا برسول الله - ﷺ- يحرّم الزنا فسنرسل إليه فأرسلوا إليه رسولاً فسار إليه وقدم عليه عند الظهر فقال : يا رسول الله أنا رسول ثقيف إليك إن ابن أبى جذعة أتانا فقال : هذه حلة رسول الله - ﷺ - أمرنى أن أتبوأ أى بيوتكم شئت فقلنا هذه بيوتنا فتبوأ أيها شئت فانتظر سواد الليل فقال : أتبوأ أىّ نسائكم شئت فقلنا : عهدنا برسول الله - ﷺ - وهو يحرِّم الزنا فغضب رسول الله - ﷺ - غضباً شديداً لم أرأشدَّ منه .

ثم أرسل رجلين ليقتلاه ويحرّقاه بالنار . . . ثم قال : لا أراكما تأتيناه إلا وقد كُفيتماه . . . فخرج ابن أبى جذعة فى ليلةٍ مطيرة ليقضى حاجته فلدغته حيّة . . . فأحرقه الرسولان)[٩٤] .

وفى رواية الطبرانى فى المعجم الكبير :

- (فغضب رسول الله - ﷺ - وبعث رجلاً من الأنصار وقال له : اذهب إلى فلان فاقتله وأحرقه بالنار فإنتهى إليه وقدمات وقبض فأمر به فنُبش ثم أحرقه بالنار)[٩٥] .

هذا الصحابى الذى ائتمنه محمد وأرسله فى مهمة وأعطاه حلته كعلامة - وهكذا كانوا يفعلون فى تلك الأيام - يخون الأمانة ويحاول أن يستخدم العلامة لتحقيق غرضه الدنىء ويخبر ثقيفاً أن محمداً أباح له نساءهم يختار منهن ما يحلو له ، ولكن الثقيفيين كانوا أذكى منه فلم ينخدعوا ، خاصة وأن ماطلبه منهم هو زنا صُرَاح من قبله وديوثة من جانبهم وعهدهم بمحمد أنه يحرّم ذلك ويحدُّ فاعله فكَيفَ يأمر به !! والعقاب الشديد الذى أمر بإنزاله بابن أبى جذعة الذى بلغ حد تحريق رمته كان جزاءً وفاقاً .

هكذا كان وصال النسوان ومخالطتهن فى ذلك المجتمع ، وتلك كانت هيمنته على أفراده حتى إن أحدهم لا يتورع عن أن ينسب إلى محمد أبشع تهمة وذلك فى سبيل تحقيق رغبته .

٥

الجنس في مجتمع يثرب

لم تكن للزنا عقوبة قبل الإسلام توقعها السلطة الحاكمة خلا العقابَ المعنويَّ الذى ينزله المجتمع بمرتكبه خاصة إن كانت المرأة الزانية من فخذ أو بطن معروف فيقوم هؤلاء بمحو عارهم بطريقتهم الذاتية ، أما الرجل الزانى فلا عقاب عليه بل كان البعض يتباهى بذلك ويعده من سمات الرجولة والفحوله وإفتخر شعراؤهم بذلك .

ولذا كانت العلاقات المحرمة متفشية فى مجتمع يثرب والأحاديث والأخبار التى تحمل وقائع الزنا والملاعنة تقطع بذلك ، ولعل أشهرها :

- (واقعة زنا ماعز والغامدية فلا يكاد يخلو ديوان من دواوين السُنّة أوكتاب من كتب الفقه منها ، وسوف نذكرها عندما ندرس مشكلة «المغّيبات» التى أشرنا إليها فى مقدمة هذه الدراسة ، لأنه يتضح من سياق الحديث أن الغامدية كانت منهن .

- (عن عمران بن حصين أن إمرأة من جهينة أتت النبى - ﷺ - وهى حُبْلى من الزناء فقالت يا رسول الله إنى أصبت حداً)[٩٦] .

حتى الأبكار المخدَّرات فى البيوت طالتهن تلك النزعة العارمة التى سيطرت على «المجتمع اليثربى» فأكرهتهن لشدة عرامتها على التفريط فى عذريتهن :

- (قال بصرة بن أكثم تزوجت بكراً فى سترها فدخلت عليها فإذا هى حُبْلى فقال النبى - ﷺ - لها الصداق بما استحللت من فرجها والولد عبدٌ لك فإذا ولدت فاجلدوها)(٩٧) .

الحديث ورد فى واحد من الصحاح فلا مطعن فيه وصاحبة الواقعة على حد تعبير الخبر : بكر فى سترها ، ومع ذلك سرت إليها نزعة التلاقى بالآخر بل اقتحمت عليها عقر سترها ، فأى قوة وسلطان ؟ ؟

وأخرى :

- (روى أبو داود بإسناده أنَّ رجلاً يقال له نصر بن أكثم نكح إمرأة فولدت لأربعة أشهر فجعل النبى - ﷺ - لها الصداق بما استحل من فرجها وفى لفظ قال : الصداق بما استحللت من فرجها فإذا ولدت فاجلدوها)(٩٨) .

والدليل على أنَّ الزوجة كانت بكراً أنَّ محمداً أمر بجلدها بعد ولادتها إذ لو كانت ثيباً لأمر برجمها .

وهى كسابقتها سيطر عليها هاجس التماسّ بالذكر المهيمن على مجتمعها فلم تعبأ بالتفريط فى بكَارتها وإلحاق العار بأهلها ! ! !

وهذه ثالثة الأبكار :

- (عن ابن عباس قال : تزوج رجل من الأنصار إمرأة من بلعجلان فدخل بها فبات عندها فلما أصبح قال : ما وجدتها عذراء ، فرفع شأنها

إلى النبى – ﷺ – فدعا الجارية (الشابة حديثه السن) فسألها فقالت : بلى كنت عذراء ، فأمر بهما فتلاعنا وأعطاها المهر)[٩١] .

حتى الجارية أى الشابة الحديثة السن التى بالكاد تخطت مرحلة الطفولة لم تصبر عن التماسّ بالذكر ولا يهم أن بكارتها ستزول ، إلى هذه الدرجة بلغ هذا الأمر فى ذلك المجتمع !!

وهذه أمثلة فحسب تقطع بأن الزنا كان منتشراً فى المجتمع اليثربى ولم تفلت منه الشابات حديثات السن ، المخدّرات فى البيوت .

***

عندما انتقل محمد إلى حنايا مجتمع يثرب وعاش فيه وخالط أهله أدرك على الفور أنه مثيل للمجتمع المكى وأن الزنا فيه عملة متداولة ونسق اجتماعى شائع تمارسه حتى الفتيات داخل أسوار البيوت ورغم رقابة الأهل والجيرة ، فتوصل إلى حل لهذه الظاهرة الاجتماعية وهو أن يتلو عليهم قرآنا يحرّم الزنا ويصفه بأوصاف بشعة ويجعل له عقوبة (حّداً) ، يختلف باختلاف الزانى فإن كان محصناً يرجم وإن كان غير محصن يجلد مائة ثم رفعت آية الرجم قراءة وبقيت حكْماً .

ولكنّ شرط إثبات الزنا بأربعة شهود يرون الميل فى المكحلة صعب التحقيق خاصة وأن العملية تتم – بداهة – فى الستر وفى مكان مقفول الأمر الذي يجعل إثباتها مستحيلاً فأفزع هذا الشرط صحب محمد وخاصة الغيورين منهم الذين يتوقعون أن يجدوا رجالاً يعتلون نساءهم ، فهل يذهبون لإحضار الشهود؟ هنا يفلت الزانى والزوجة بعد أن يكونا قد استمتعا وقضيا وطرهما وأطفآ شهوتيهما !!!

فإذا رماها بالزناء دون تلك البيّنة المستحيلة أقيم عليه الحد طبقا للآية : «والذين يرمون المحصنات»[١٠٠] وأرّقت هذه المشكلة حتى صحابة أكابر :

- (فقال سعد بن عبادة : والله يا رسول الله إنى لأعلم أنها (= الآية) حق وأنها من عند الله ولكنى قد تعجبت : لو وجدت لُكاعا قد تفخدها رجل . . . لم يكن لى أن أهيِّجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء فوالله إنى لآتى بهم حتى يقضى حاجته . . . فما لبثوا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشّياً فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيِّجْه حتى أصبح وغدا على رسول الله فقال : إنى جئت أهلى عشّياً فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعينى وسمعت بأذنى ، فكره رسول الله - ﷺ - ما جاء به واشتدّ عليه)[١٠١،١٠٢،١٠٣] .

بداية لم يستنكر سعد بن عبادة وهو مَنْ هو أن يجد رجلاً مع امرأته بل ناقش الآية باعتبار أن ذلك أمر جائز الورود ثم إنَّ هلال بن أمية من أعيان الصحابة ومن أغنياء الأنصار وفى الخبر أنه كان عائداً من أرضه (حيطانه وكرومه وبساتينه ونخيله . . . إلخ) .

ومع ذلك كانت تخونه زوجته الأمر الذى يدلّ على انتشار تلك الظاهرة فى عوالى المجتمع اليثربى وأسافله ويفسّر لنا لماذا كانت الشابة حديثة السن تفعل ذلك لأنها كانت ترى بعينها أمها وزوجات أبيها وعماتها وخالاتها يفعلن ذلك . . . ونعود إلى سياق الخبر الذى انتهى بعبارة «فكره رسول الله -ص - ما جاء به أى هلال واشتدّ عليه» ووجه الشدة على محمد أنه يعلم أن هلالاً صادق فيما حدَّث به وأن المرأة خؤون ولكن يرى ابن أمية خالياً من البّينة أو الشهود الأربعة . . . ومعنى ذلك جلده ثمانين جلدة (على ظهره) وتُخرج له زوجته وشريكها لسانيهما شماتة ! ! !

وهى صورة مأساوية ومن هنا كما ورد فى الحديث «اشتدّ على محمد» .

ولكن كما رأينا فيما سلف عندما تتأزم المشكلات ويقع كبراء الصحابة فى ورطة يسعفهم محمد بالحل بأن يتلو عليهم آيات من القرآن تأتى بالفرج بعد الشدة والسعة بعد الضيق إذ بعد قليل تلا عليهم آيات الملاعنة أو اللعان وهى السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة من سورة النور .

ولم تكن زوجة هلال هى الوحيدة فى ذلك بل لأنَّ الظاهرة منتشرة فاننا نقرأ عن زوجات أخريات لاعنهن أزواجهن وسبق أن قرأنا خبر عذراء بلعجلان المتلاعنة :

- (هناك أنصارى آخر هو عويمر بن أبيض العجلانى دخل بيته فوجد رجلاً ممتطياً زوجته فرفع الأمر إلى محمد ، وتلاعنا أمامه[١٠٤] .

- (قال الحافظ ابن حجر : إختلف الأئمة فى هذه المواضع فمنهم من رجّح أنها (آيات اللعان) نزلت فى شأن عويمر (صاحب الخبر الأخير) ومنهم من رجَّح أنها نزلت فى شأن هلال (صاحب الخبر الأول) ومنهم من يجمع بينهما)[١٠٥] .

وسواء كانت آيات اللعان نزلت فى شأن هلال أو فى شأن عويمر فالذى لاشك فيه أن زوجتَيْهما قد زنتا وخانتاهما لأن بقية الخبرين : أن الولدين جاءا أشبه بالزانيين ، والزوجتان صحابيتان بل إن إحداهما وهى زوجة هلال خاطبت محمداً فى واقعة سابقة وخاطبها .

وخبرا زناء الصحابيتين زوجتى الصحابيين هلال وهو من

المشهورين وعويمر ، لا يخلو منهما كتاب من كتب التفسير ولا مؤلَّف فى الفقه على جميع المذاهب لأنَّ هاتين الواقعتين كانتا السبب فى تشريع اللعان أو الملاعنة بين الزوجين فُكتب التفسير تتحدث عن اللعان عند تفسير آياته وكُتب أسباب النزول تورد المناسبتين ، وكُتب الفقه عند شرح اللعان وشروطه وموجباته وآثاره(١٠٦) ، والذى دفع الصحابيتين زوجتى الصحابيين هلال وعويمر إلى الزنا معروف ومنتشر بين طبقات ذلك المجتمع كافة ، إذ لم تكن الخيانة بدافع الحاجة إذ لم يؤثر عن هلال أو عويمر الفاقة والعوزبل العكس هو الصحيح فقد ذكرنا أن هلالاً كان صاحب بساتين وأن عشية واقعة الخيانة كان راجعاً من حيطانه - ولا بسبب الانتقام من الزوجين لأنهما كانا يخادنان غيرهما من النسوان ، أمّا إذا كان ذلك بدافع المتعة ومتعة التماسّ بالذكر التى كانت طاغية على الإناث فى ذلك المجتمع فقد كان هلال بن أمية كما وصفته زوجته لمحمد عند تخلفه دون عذر فى غزوة تبوك بقولها (إنه والله مابه حركة إلى شىء)(١٠٧) عند ما طلب منها محمد ألا يقترب منها ، وتلك العبارة كناية عن عجز زوجها المطلق عن المجامعة أو بتعبير صحابية أخرى : «إن مامعه مثل هدبة الثوب !» .

ذلك أن هلال بن أمية من الثلاثة الذين خُلِّفوا عن محمد فى غزوة تبوك فأمر تابعيه المسلمين باعتزالهم حتى زوجاتهم ولاشك أن محمداً كان يدرك أهمية اعتزال المخلّفين عن زوجاتهم ومدى وقع ذلك عليهم وتأثيره فى نفوسهم لأنه سيحرمهم من الطقس اليومى الذى دأب أفراد ذاك المجتمع على ممارسته ذكوراً وإناثاً حتى ولو بطريقة غير مشروعة بل ولو أدى إلى أن تفقد الفتاة بكارتها !!!

فجاءت زوج هلال بعد أمر الاعتزال إلى محمد تستأذنه فى خدمة

(= هلال) لأنه شيخ كبير لا يقدر على خدمة نفسه فأذن لها بالخدمة بشرط عدم الملامسة فردت على محمد بتلك العبارة . . . . إذن كان من البديهى أن تبحث تلك الزوجة عن الشاب الفتىّ العفىّ الذى كله حركة وشدة ليروى ظمأها ويعوضها عن حرمانها وعن هرم زوجها .

أما الصحابى الآخر الذى خانته زوجه : عويمر بن أبيض العجلانى فكما وصفه الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما «مصفراً قليل اللحم» كناية عن الضعف والمرض فكيف لا تبحث زوجه عن شاب جلد قوى صحيح يشبعها ويرضيها . هذا هو الدافع الباعث للصاحبتين زوجتى هلال وعويمر لخيانة الزوجين وهو ذاته المسيطر على أفراد ذلك المجتمع .

وفى الحالتين جاء المولود شبيهاً بالشريك الخدين أو الخليل وهو ما يقطع بزناء الزوجتين . ومن طريف ما يذكر أن هذا الشريك فى الحالتين هو الصحابى شريك بن سحماء وهو رجل مكتمل الرجولة ، ظاهر الفحولة فقد شهد مع أبية عركة أحد(١٠٨) التى وقعت فى السنة الثانية والملاعنة فى التاسعة ، أى خلال هذه السنوات السبع اكتملت رجولته وتنامت فحولته وأوردت الأخبار نقطة هامة وهى أنه بَلَوىّ من بلىّ ولكنه كان حليفاً للأنصار(١٠٩، ١١٠) .أى يعرف أحوالهم ومداخلهم ومخارجهم وعلى خلطة تامة بهم وظروف نسوانهم ومن الذى زوجها شيخ ليس به حركة للمفاخذة ومن التى زوجها مصفر قليل اللحم أى ضعيف مريض لا طاقة لديه للمباطنة . . . . من أجل هذا تلاقت رغبته مع رغبتيهما لأنَّ الدافع لديهم جميعاً وهم أبناء وبنات المجتمع اليثربى عارم ومتوقد .

٦

مشكلة «المغيبات»

- (جميع ماغزا رسول الله - ﷺ - بنفسه سبعاً وعشرين غزوة . . . وكانت بعوثه وسراياه - ﷺ - ثمانية وثلاثين من بين بعث وسرية)[١١١] .

وكان عدد السرية أو البعث أو الغزوة يتراوح ما بين أفراد وعشرة آلاف كما فى فتح مكة[١١٢] . ولم يكن تابعو محمد كلهم يخرجون فى السرايا والغزوات والبعوث بل تبقى الغالبية العظمى وتظل بيوت الخارجين مكشوفة ورغبة التماسّ بين نسائهم والقاعدين أو المخلفين على ما وصفنا ، لذا غدت هذه مشكلة اجتماعية حارقة وهى «مشكلة المغيبّات» وهن اللائى غاب عنهن أزواجهن .

كان على محمد أن يواجهها بحسم لضرورة توالى السرايا والغزوات التى هى ضمان بالغ الأهمية للدين الذى جاء به والدولة القرشية حُلم أجداده وآبائه التى أقامها فى يثرب ، وبلغت إحصائية ابن هشام فى السيرة النبوية خمساً وستين فى عشر سنين أى خمسين يوماً

على وجه التقريب لكل غزوة أو سرية أو بعث ومن المستحيل على محمد أن يكف عن إرسالها وبصورة منتظمة تحصيناً لدينه وتثبيتاً لدولته التى وضع حجر أساسها جده الأعلى قصيٌّ بن كلاب[١١٣] .

وكان عليه من جانب آخر أن يضمن لجنوده الخارجين فى الغزوات والسرايا تغطية مواعينهم وستر بيوتهم وصيانة أعراضهم ، وعدم انفلات (المغيَّبات) بعد مبارحتهم يثرب / المدينة ، خاصة أن هناك مَنْ هم على استعداد كامل للإلتقاء بهن .

من أجل هذا قابل محمد «مشكلة المغّيبات» بحزم وصرامةٍ شديدين وأصدر بشأنها أحاديث توقع الرهبة البالغة فى نفس كل من يقترب مجرد اقتراب من هؤلاء «المغّيبات» المتعطشات ، وقلنا إن أحاديثه لها قدسية كبيرة لدى أتباعه ولوأنها تجيء فى الرتبة التالية للقرآن :-

- (عن سليمان بن بريدة قال : قال رسول الله - ﷺ - : حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم ، ما من رجل يخالف الى امرأة رجل من المجاهدين الإ وقف يوم القيامة فقال : هذا خانك فى أهلك فخذ من عمله ما بدالك فما ظنكم)[١١٤] .

فى هذا الحديث يسّوى محمد بين حرمة الأم وحرمة المغَّيبة أى من يزنى بزوجة الخارج فكأنما زنى بأمه ومن يفعل ذلك يُفضح علانية على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ويمكن للخارج اقتصاصًا منه أن يضع يده على جميع حسناته ! !

وهى عقوبات صوارم قصد منها معالجة المشكلة بل القضاء عليها ، ولكن هل أفلحت فى ذلك أم أن النزعة الغلابة لدى الطرفين ظلت كما هى ، هذا ما سوف نراه .

- (فى حديث علىّ - رضى الله عنه - قال يا رسول الله-ﷺ- : . . . من آذى مجاهداً فى أهله فمأواه النار لا يخرجه منها إلا شفاعة المجاهد لله إن فعل ذلك)[١١٥] .

هنا تتساوى جريمة الزنا بزوجة الخارج فى غزوة أو سرية بالكبائر التى تخلّد مرتكبها فى النار لأن إحتمال شفاعة الخارج للزانى مع زوجته منعدم تماماً .

- (مثل الذى يجلس على فراش المغيّبة مثل الذى ينهشه أسود أى ثعبان من أساود يوم القيامة)[١١٦، ١١٧] .

إن صدور هذه الأحاديث الباترة كحد السيف يقطع بأن المشكلة متفاقمة وتزداد اتساعاً ولا توجد فى الأفق بادرة حل لإنهائها كما يتضح مما يلى :

- (عن جابر بن سمرة قال : بعد رجم ما عز بن مالك (صاحب الغامدية التى يفهم من سياق الحديث أنها كانت إحدى المغيبات) خطب رسول الله - ﷺ - فقال : أكلما نفرنا فى سبيل الله عز وجل خلف أحدهم نبيباً كنبيب التيس يمنح إحداهن الكثبة ، أما والله إن يمكنىّ الله من أحد منهم إلا نكلته عنهن)[١١٨] والنبيب : الصياح والتيس ذكر الماعز . والحديث يُصّور بعبارات بليغة أحوال القاعدين الذين يحومون حول المغيّبات وتشبيهه لهم بالتيوس التى تصيح إغراءً لإناث الماعز تشبيه مستَقًى من البيئة . وهو (= الحديث) يدل على أن المشكلة لم تكن فردية بل جماعية بل إنها تحولت إلى ظاهرة اجتماعية وإلالما جاء وعيد محمد شديداً وصل حد النكال والتنكيل - إنما الذى لا مرية فيه أن تلك الأحاديث رغم قساوة العقوبات التى حملتها وصرامة الوعيد الذى

بشّرت به لـم تمنع التيوس من القاعـدين من الدخول على المغّيبات والاستمتاع بهن فقد رأينا فيما سلف حكاية الأنصارى الذى دخل على زوجة (أخيه) الثقفى الذى كان خارجاً فى غزوة أو سرية . . . وكذلك فهمنا من سياق قصة الغامدية صاحبة ماعز أنها (مغّيبة) فأغراها مالك أو ربما هى التى أغرته والأصح أنه تلاقت رغبتاهما وسلك محمد فى علاج مشكلة المغيّبات طريقاً آخر وهو نهى الأزواج عن (مفاجأة زوجاتهم ليلا ويسمى «الطروق ليلاً» :

- (إذا دخلت ليلاً فلا تدخل على أهلك حتى تستحّد المغيّبة وتمتط الشعثة)[١١٩] . والاستحداد هو حلق العانة وتسميه العامة فى مصر : «النتف»[١٢٠] . وهى كلمة عربية فصيحة ، والشعثة هى التى تفرق شعرها لعدم الامتشاط .

- (إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً)[١٢١] .

- (قال النبى - ﷺ - : لا تطرقوا النساء ليلاً حتى تمتشط الشعثة وتستحّد المغيّبة)[١٢٢] .

وقيل إن بعض الصحاب خالف هذه الأوامر الصريحة وطرق أهله ليلاً ففوجىء بزوجته فى أحضان رجل وكان من الحتم اللازم أن يتوقع ذلك ، أليس هو ابن «مجتمع يثرب» وربيبه ! ! !

من الواضح أنَّ محمداً بنهيه صحبه عن دخول بيوتهم ليلاً هو أن يجنبهم المرور بتجربة قاسية تحطّم معنوياتهم وتمنعهم من الانخراط مرة أخرى فى سراياه وغزواته وبعوثه ونعنى بها تجربة مشاهدة الزوجة تحت رجل آخر لأن الاستحداد والامتشاط والاغتسال والتزيُّن والتعطر . . . إلخ . .

لا تستغرق جميعها من الزوجة أكثر من ساعة ، وهذه لاتساوى أن يقضى الزوج الليلَ بطوله خارج بيته خاصة وأنه قد عاد مجهداً معفَّرا . . . .

ولماذا لم ينههم محمد على الدخول عن الزوجات نهاراً وحالتهن فى الليل أو النهار واحدة : عدم الاستحداد والامتشاط . . . وما الفرق بين أن ينتظر الزوج حليلته بعض الوقت حتى تتزين له سواء بالنهار وبالليل ؟

إن محمداً الحصيف كان يعرف أن الليل هو الوقت المفضل لتلاقى الأخدان خاصة فى ذلك الزمان إذ لم تكن إنارة الشوارع والطرقات قد عُرفت بعد وأدوات الإضاءة كانت آنذاك ضعيفة واهنة كليلة تمكِّن من الدخول والخروج فى أمان خاصةً وأن الناس قد أوت إلى مساكنها وانقطعت الأرجل السابلة . . .

لهذا نهى محمد أتباعه عن الدخول على الزوجات المغيّبات فى ظلمة الليل حتى لايفاجأوا بما لا يسرهم بل يفزعهم و يفجعهم و يدفعهم إلى الإحجام عن الخروج .

***

واستمرت «مشكلة المغّيبات» بعد وفاة محمد فقد قرأنا فى خلافة عمر ما يدل على ذلك :

- (روى أبو حفص عن زيد بن أسلم قال : بينما عمر بن الخطاب يحرس بالمدينة فمرّ بامرأة تقول :

تطاولَ هذا الليل واسودَّ جانبه . . . وطال علىَّ ألا خليل ألاعبه

والله لولا خشية الله وحده . . . لحرِّك من هذا السرير جوانبه .

(وفى رواية لزُلزل) فسأل عمر عنها فقيل له : هذه فلانة زوجها غائب فى سبيل الله فأَرسل إليها مرأة تكون معها وبعث إلى زوجها فأقفله ، بعدها كتب إلى أمراء الأجناد : لا تحبسوا رجلاً عن إمرأته أكثر من أربعة أشهر)[١٢٣] .

إرسال ابن الخطاب امرأة إلى المتشوقة لزلزلة السرير مقصود منه مراقبتها حتى يؤوب زوجها خشية أنْ تدفعها النزعة العارمة إلى خدن أو خليل يزلزل بها سريرها بعد أن طالت غيبة زوجها ولو كان عمر يثق فيها لما فعل ذلك وإرساله الرقيبة يرجع إلى معرفته بأحوال «المجتمع اليثربى» . . . .

أما سبب توقيت مدة غيبة الزوج بأربعة شهور فمرده أنه سأل النسوة عن المدة التى تصبر فيها المرأة عن المجامعة فأجبنه : أربعة أشهر - ولكن ذلك القرار لم يحسم تلك المشكلة ذات الجذور العميقة لأن الأشهر الأربعة هى الحد الأقصى لا الحد الأدنى ، خاصة وأن نسوة ذلك المجتمع تعودن على المباطنة اليومية ومن ثم استمرت المشكلة دون حل :

- (عن الحسن قال : أرسل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى مرأة مُغيّبة كان يُدخل عليها فأنكر ذلك فأرسل إليها فقيل لها : أجيبى عُمَرَ فقالت : ياويلها ما لها ولعمر . . . إلخ)[١٢٤] .

وعبارة «يُدخل عليها» واضحة تفسر نفسها وفزع المغيبة المدخول عليها من طلب عمر لها ودعاؤها على نفسها بالويل والثبور وعظائم الأمور دليل على أنها كانت مُريبة أو إذا شئت الدقة أنها مُغيّبة نموذجية أى

يتوافق سلوكها مع موجبات وأنساق وأعراف «مجتمع يثرب» الذى كانت نزعة التلاقى والتماس مع الآخر فيه غالبة .

* * *

تلك جولة - على طولها النسبى - نراها قصيرة فى «مجتمع يثرب» إبّان العهدين المحمدى والخليفى من زاوية واحدة هى علاقة الرجل بالمرأة (والمرأة بالرجل) .

والعهد المحمدى هو عهد التدشين والتأسيس والتبليغ والتكوين . . . أمُّا العهد الخليفى فهو حقبة التشييد والانسياح والتوسع والإعلام . . والعهدان فى نظرنا على درجة قصوى من الأهمية وخاصة أولهما .

ومع ذلك لم يأخذا حقهما من الدراسة الموضوعية المنهجية العلمية ، من كافة النواحى : العقائدية أو الدينية والاجتماعية والاقتصادية بل والعسكرية . . . . إلخ .

وإن كان هناك ركامٌ هائلٌ من الكتابات الخطابية الإنشائية عنها .

وكتب التراث بمختلف أنواعها تنضوى على مخزون ضخم ضخامة لا يتصورها القارىء العادى من المعلومات عن الفترة المحمدية خاصة ثم عن العصر الخليفى . وكثيراً ما لفتنا النظر إلى أن الكتابة عن هاتين الحقبتين من القصور البيّن بل من السذاجة المفرطة بمكان لأن الاعتماد فيها على كتب التاريخ وحدها - مع تقديرنا البالغ لها ولأصحابها - والإعراض عن دواوين السنة بمختلف أسمائها ورتبها وكتب أسباب النزول وتفسير القرآن والناسخ والمنسوخ والقراءات والعدد فى القرآن ومناسبات ورود الحديث والجرح والتعديل والمتروكين والمدلّسين وكل

علوم الحديث ومؤلفات الفقه منذ نشأته في يثرب وقبل ظهور المذاهب ثم بعد ظهورها والمذاهب المندرسة والمندثرة والباقية والمستمرة وعلم أصول الفقه وكتب الطبقات في شتى المجالات وعلم الكلام . . . إلخ .

وعن كتب الأدب والأمالي والنوادر . . (هذه نذكرها كمصدر ثانٍ) .

إنها جميعها أرَّخت لهذين العهدين تأريخاً دقيقاً ولكن بطريقتها الخاصة التي هي من البديهي ألاتجيء مطابقة لطريقة المؤرخين وتبتعد عن السرد التاريخي . . .

ولكن بها كنوز - وليس في هذه اللفظة أدنى مبالغة - من الأحداث والأخبار والنوازل والخطب والرسائل المساجلات والمحاورات . . .

التي تضيئ بشكل باهر ومبهر جميع النواحي في المجتمعين المحمدي والخليفي وخاصة الأول منهما وذلك للعناية البالغة التي أولاها مصنفو وواضعو وجامعو ومؤلفو . . . تلك الكتب لشخصية محمد حتى إننا نؤكد أنهم لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة عن ذلك العهد ولها علاقة بمحمد إلا دونوها ولما كان هو محور ذلك العهد فمعنى ذلك أنهم سطروا كل شيء عنه ، ثم بدرجة أقل عن الحقبة التالية له أي الحقبة الخليفية .

وفي مذهبنا أنهم أدوا أمانتهم ولا يطلب منهم أكثر من ذلك ، ولا ينال من عملهم الجبار ذاك ما لحقه من تبرير وتلفيق وتزويق حاولو أن يبرروا به أو يجمِّلوا به بعض الوقائع من أشخاص يكنون لهم في نفوسهم قداسة أو تقديراً فهذه مسألة يُعذرون فيها .

والعين البصيرة الناقدة التي تقرأ بوعي والتي نزعت عنها القداسات

الزيوف - التى عادة ماتصاحب القارىء لهذه الكتب - هذه العين تستطيع بقدر من التمحيص أن تكشف تلك التبريرات والتلفيقات والتزاويق وتنحّيها جانباً وتعكف على الوقائع نفسها تدرسها دراسة موضوعية وتبحثها بحثاً علمياً مجرداً وتحللها تحليلاً دقيقاً ، كما فعلنا - على قدر جهدنا وطاقتنا - فى هذا البحث . فالأخبار والنوازل والوقائع والأحداث التى أوردناها معجونة- فى مصادرها الأصلية - عجناً بالتبريرات والتسويغات والتلفيقات والتزاويق والتجميلات . . إلخ ولكننا استطعنا بعد قراءة أو قراءات مستأنية متمسكة بحبال الصبر ، وبعيون ناقدة متحررة من غبش التقديس الزائف أن ننفض عنها كل ذلك ونعيد قراءتها قراءة جديدة نحّت جانباً هالات التبجيل المصطنعة وحللناها وعرضناها بموضوعية لعل القارئ قد أدركها .

ومن المهم بمكان أن نذكر أن هالات التفخيم والتعظيم بدأت فى تلك المؤلفات مبكرةً للغاية ربما منذ «عصر التدوين» لأن كاتبيها أو مؤلفيها أو جامعيها يكتبون عن أناس لهم فى نظرهم قدرٌ وفيرٌ من القداسة ، وليس صحيحاً أن التفخيم والتبجيل والتعظيم لم تعرفها إلا كتابات ما يسمى بكل مجانية وخفة ب «عصور الانحطاط» وإن كانت النبرة زادت زيادة واضحة والعبارات تضاعفت والنهج نفسه تضخم أو لنقل إنه تورَّم فى هذه العصور ولكن الذى لاشك فيه أن البذرة كانت موجودة منذ البدايات الأولى وهذا أمر طبيعى .

وعجبى يتزايد يوماً بعد يوم من كليات العلوم الإنسانية فى الجامعات المصرية والعربية والإسلامية التى لم تلتفت منذ نشأتها إلى تلك الدواوين والكتب والمؤلفات . . . إلخ كمصدر رئيسى للتاريخ والتقييم للحقبة المحمدية على وجه خاص ثم من بعدها للحقبة الخليفية ،

إن هذا الضرب من الدراسات والبحوث الذى ندعو إليه بكل ما نملك من قوة سوف يؤدى بطريق الحتم واللزوم إلى تفكيك «القباب المقدسة» قداسات زيوف والتى تخيّم على العقل العربى (بما فيه المصرى) منذ قرون فتحجب عنه الهواء النقى والشمس الساطعة وإلى كسر القيود التي تكبله وتمنعه من الانطلاق إلى الآفاق الرحيبة والفضاءات غير المحدودة التى تسبح فيها عقول الآخرين وإلى تسليط الأنوار الكاشفة على «النصوص» لتُعرف على حقيقتها ، وساعتها ينعتق المخاطبون بها من هيمنتها وتسلطها عليهم فى كل مناحى حياتهم حتى عندما يدخلون أماكن قضاء الحاجة ! ! !

وإلى تعرية رموز كبيرة الشأن رفيعة المقام ونزع الهالات المصطنعة التى أحاطوها بها وعَرْضِها بالصورة الحقيقية الواقعية بلا رتوش كما هى مرسومة فى كتب التراث بعد إقصاء التزويقات والتجميلات التى أشرنا إليها فيما سلف ، وساعتها سوف يصيح من «يعاينها على الطبيعة» : كم كنا مخدوعين ! !

وسوف يؤدِّى إلى تحطيم «الأساطير» التى يؤمن بها حتى حملة الإجازات العلمية الجامعية الرنانة وبعضهم أحضرها من بلاد «الفرنجة» ! ! !

***

ولكن ما الهدف من وراء ذلك كله ؟

والجواب :إن تحرير العقل العربى (وطبعاً المصرى) من القيود التى تكبله والفكر العربى «وطبعاً المصرى» من «النصوص» و «الأساطير» التى تشلّ حركته ، من أهم الدوافع إن لم تكن أهمها جميعاً والتى ستساهم

إن هذا الضرب من الدراسات والبحوث الذى ندعو إليه بكل ما نملك من قوة سوف يؤدى بطريق الحتم واللزوم إلى تفكيك «القباب المقدسة» قداسات زيوف والتى تخيّم على العقل العربى (بما فيه المصرى) منذ قرون فتحجب عنه الهواء النقى والشمس الساطعة وإلى كسر القيود التي تكبله وتمنعه من الانطلاق إلى الآفاق الرحيبة والفضاءات غير المحدودة التى تسبح فيها عقول الآخرين وإلى تسليط الأنوار الكاشفة على «النصوص» لتُعرف على حقيقتها ، وساعتها ينعتق المخاطبون بها من هيمنتها وتسلطها عليهم فى كل مناحى حياتهم حتى عندما يدخلون أماكن قضاء الحاجة ! ! !

وإلى تعرية رموز كبيرة الشأن رفيعة المقام ونزع الهالات المصطنعة التى أحاطوها بها وعَرْضِها بالصورة الحقيقية الواقعية بلا رتوش كما هى مرسومة فى كتب التراث بعد إقصاء التزويقات والتجميلات التى أشرنها إليها فيما سلف ، وساعتها سوف يصيح من «يعاينها على الطبيعة» : كم كنا مخدوعين ! !

وسوف يؤدِّى إلى تحطيم «الأساطير» التى يؤمن بها حتى حملة الإجازات العلمية الجامعية الرنانة وبعضهم أحضرها من بلاد «الفرنجة» ! ! !

* * *

ولكن ما الهدف من وراء ذلك كله ؟

والجواب :إن تحرير العقل العربى (وطبعاً المصرى) من القيود التى تكبله والفكر العربى «وطبعاً المصرى» من «النصوص» و «الأساطير» التى تشّل حركته ، من أهم الدوافع إن لم تكن أهمها جميعاً والتى ستساهم

فى انتشال مجتمعاتنا من وهدة التخلف التى تتردى فيها منذ قرون .

والسؤال الخاتم الذى حَيّرنى وأقضَّ مضجعى منذ أعوام طوال : متى تُنجز تلك الدراسات والبحوث ؟

بل : من يجرؤ على مجرد الاقتراب منها الآن؟

المصادر والهوامش

١ - فى المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية . الساذج : الخالص غير المشوب وغير المنقوش ، وفى القاموس المحيط هو ثوب سادة . أما فيما إصطلح عليه العامة فهو البسيط - مخموم القلب - أو - طيب القلب . ونحن لا نقصد هذا المدلول .

٢ - فى المعجم الوسيط / فز الرجل فزوزة : نشط وتوقد .

٣ - فى القاموس المحيط للفيروزآبادى نزع الرجل إلى أهله نزوعاً (بالضم) أي اشتاق . وفى المعجم الوسيط النزوع : حالة شعورية ترمى إلى سلوك معين لتحقيق رغبة ما .

٤ - الجامع الصحيح مسند الربيع بن حبيب البصرى الجزء الثانى ص ٣١ على ترتيب أبى يعقوب يوسف الورجلانى . د . ت . ن - مكتبة الثقافة الدينية بمصر .

٥ - السيرة النبوية للإمام أبى محمد بن عبد الملك بن هشام المتوفى سنه ٢١٣ هـ - تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد الجزء الرابع ص ٢٤١ طبعة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ نشر : مكتبة الحاج عبد السلام محمد بن شقرون - بمصر .

٦ - تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن ، ص ٤٩ - د . ت . ن - طبعة دار الشعب بـ مصر .

٧ - المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

٨ - فتح المغيث ج ٤ - ص ٣٩ ، وتلقيح فهوم الآثار ص ١٢٨أ .

نقلاً عن كتاب السنة قبل التدوين ص ٤٠٦ والهامش ، الطبعة الخامسة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م دار الفكر للطباعة والنشر / بيروت - لبنان .

٩ - تفسير القرطبي ص ٤٦ - مصدر سابق .

١٠ - المصدر نفسه ص ٤٥ .

١١ - طبقات ابن سعد وفتح البارى ومسند أحمد وحلية الأولياء . نقلاً عن كتاب السنة قبل التدوين - ص ٤٢٣ وهامشها - سابق .

١٢ - أخرجه البخارى - نقلاً عن كتاب حياة الصحابة ص ١٤٠ من الجزء الثالث محمد يوسف الكاندهلوى الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م الناشر - دار الوعى حلب سوريا . كذلك أخرجه مسلم فى الصحيح بلفظ مقارب وهو متفق عليه .

١٣ - أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى نقلاً عن حياة الصحابة جـ ٣ ص ١٦٨ سابق .

١٤ - أورده البيهقى فى السنن الصغرى وذكر له رواية أخرى عن إسرائيل عن سماك .

١٥ - كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة ص ١٦٥ الطبعة الخامسة ١٣٩٦ هـ نشر : المطبعة السلفية ومكتبتها بمصر .

١٦ - أسباب النزول للواحدى ص ٨٢ طبعة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م الناشر : مؤسسة الحلبى بلقاهرة . يقول الواحدى إنها سبب نزول آية (والذين إذا فعلو فاحشة . . .)

١٧ - المصدر ذاته ص ٨١ .

١٨ - رواه البخارى عن طريق يزيد بن زريع ومسلم عن يحيى فى الصحيحين . من المصدر نفسه والصفحة نفسها .

١٩ - المصدر نفسه الصفحة ١٨٠ .

٢٠ - البيان والتعريف فى أسباب ورود الحديث الشريف تأليف إبراهيم بن محمد الشهير ب ابن حمزة الحنفى ت ١١١٠ هـ حققه وعلق عليه الشيخ الحسينى هاشم الجزء الأول ص ٧٦ طبعة ١٩٨٥ م الناشر : مكتبة مصر .

٢١ - مبادىء علم النفس العام - د . يوسف مراد الطبعة الثالثة ١٩٥٧ م دار المعارف بمصر .

٢٢ - محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى تأليف سيجموند فرويد ترجمة د .

أحمد عزت راجح د . ت . ن ص ١٢٠ ، ص ١٨٢ مكتبة الأنجلو المصرية .

٢٣ - المرجع نفسه ص ١٨٣ .

٢٤ - سنن الدارمى المجلد الأول ص ١٩٥ وأورده البيهقى فى السنن الصغير المجلد الأول ص ١٦١ ونقله عن مسلم فى الصحيح ابن قدامة فى كتاب المغنى .

٢٥ - أخرجه أحمد فى مسنده وقال الهيثمى هو فى الصحيح باختصار .

٢٦ - البيان والتعريف فى أسباب ورود الحديث الشريف الجزء الأول ص ١١٣ مصدر سابق .

٢٧ - كتاب المغازى للواقدى محمد بن عمر بن واقد المتوفى ٢٠٧ هـ ص ٥٤ من الجزء الأول تحقيق د . مارسدن جونز د . ت . ن مؤسسة الأعلمى لبنان .

٢٨ - رواه البخارى ومسلم فى الصحيحين . وجاء فى مسند الربيع عن أم سلمة الجزء الثانى ص ٣٨ . وأورده أبن كثير فى التفسير المجلد الأول ص ٤١٩ طبعة دار الشعب .

٢٩ - سنن الدرامى المجلد الثانى ص ١٤٠ .

٣٠ - رواه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم والنسائى ومالك فى الموطأ والدارمى فى السنن مج / ١ ص ١٢٦ وابن كثير فى التفسير المجلد الأول ص ٤١٠ . طبعة دار الشعب بمصر وابن عبد البر فى الاستيعاب فى معرفة الصحاب المجلد الثانى تحقيق محمد على البجاوى ص ٥٠٠ الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ دار الجيل بيروت ؛ والسيوطى فى جمع الجوامع أو الجامع الكبير الجزء الأول ص ١٣٥ طبعة مجمع البحوث الإسلامية بمصر .

٣١ - هذه الواقعة رواها مالك فى الموطأ وأحمد فى المسند والنسائى وابن ماجه . والحافظ أبو بكر بن مردويه وابن كثير فى تفسيره فى الجزء الأول ص ٤٠٢ / ٤٠٤ مصدر سابق .

٣٢ - الروض الأنف للسهيلى على هامش السيرة النبوية لـ ابن هشام الجزء الرابع ص ٦٤ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد د . ت . ن - مكتبة شقرون بمصر وأوردها ابن عبد البر فى الاستيعاب المجلد الأول ص ٣٢٦ . والقصة مشهورة ومتداولة فى كتب السير والتاريخ والأمالى . . . إلخ .

٣٣ - رواه أبو داود فى سننه الجزء الثانى ص ٢٢٠ .

٣٤ - الآية ٤٣ من سورة النساء .

٣٥ - الآية السادسة من سورة المائدة .

٣٦ - أورده الشهاب البوصيرى فى **مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه** .

٣٧ - أورده ابن عبد البر في **الاستيعاب** المجلد الأول ص ١١٨ سابق .

٣٨ - **أسُد الغابة فى معرفة الصحابة** ل عز الدين بن الأثير الجزرى ص ٤٣٠ من المجلد الثانى د .ت .ن .مطبعة دار الشعب ب القاهرة .

٣٩ - **الشرح الكبير** لابن قدامة المقدسى ، على هامش **المغنى** المجلد الثالث ص ٣٣٠ الطبعة الأولى دار الغد العربى ب القاهرة .

٤٠ - **الاستيعاب** ابن عبد البر المجلد الثانى ص ٦٨٨ مصدر سابق .

٤١ - **أسُد الغابة** ابن الأثير الجزرى المجلد الثانى ص ٦٦٤ مصدر سابق .

٤٢ - **سنن الدارمى** المجلد الثانى ص ١٧٧ مصدر سابق .

٤٣ - **مسند الربيع** الجزء الثانى ص ٤٧ مصدر سابق .

٤٤ - **الاستيعاب** ابن عبد البر المجلد الأول ص ٢٩٥ مصدر سابق .

٤٥ - **المغنى** ابن قدامة المجلد السابع ص ٥٣٩ مصدر سابق .

٤٦ - **مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه** . للشهاب أحمد أبى بكر البوصيرى تحقيق موسى محمد وعزت على عطية الطبعة الأولى ١٩٨٣م دار الكتب الإسلامية مصر .

٤٧ - الآية الثانية والعشرون من سورة **النساء** .

٤٨ - رواه ابن عساكر في تاريخه ونقله السيوطى فى **جمع الجوامع** ص ٩٩١ طبعة مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة .

٤٩ - رواه الطبرانى .

٥٠ - **أسد الغابة فى معرفة الصحابة** ابن الأثير الجزرى المجلد الأول ص ٣٢٤ مصدر سابق .

٥١ - سنن أبى داود المجلد الأول ص ٨٣ .

٥٢ - **الاستيعاب فى معرفة الصحاب** ابن عبد البر المجلد الرابع ص ١٨١٣ مصدر سابق .

٥٣ - فى **القاموس المحيط** للفيروز آبادى : **الوعر** ضد السهل ، وتوعر الأمر تعسر ، وعارة ووعورة .

٥٤ - سنن الدارمي المجلد الأول ص ٢٥٥ مصدر سابق .

٥٥ - أورده ابن كثير في التفسير المجلد الأول ص ٣٨٢ طبعة دار الشعب مصدر سابق .

٥٦ - والإمام أحمد بن حنبل في مسنده .

٥٧ - وأبو الحسن الواحدى النيسابورى في أسباب النزول ص ٤٨ طبعة مؤسسة الحلبى بمصر .

٥٨ - رواه أبو داود والنسائى وابن حبّان والحاكم فى المستدرك . نقلاً عن الجامع الكبير أو وجمع الجوامع للسيوطى الجزء الأول ص ٨٨٣ مصدر سابق .

٥٩ - أورده ابن كثير فى التفسير الجزء الأول ص ٣١٧ طبعة دارالشعب بمصر سابق .

٦٠ - والواحدى النيسابورى فى أسباب النزول ص ٣٠ طبعة مؤسسة الحلبى بمصر مصدر سابق .

٦١ - وابن هشام فى السيرة النبوية الجزء الثانى ص ٢٨٧ مصدر سابق وأضاف أن ابن الخطاب رمى زوجتة بالكذب عندما قالت له : إنى قد نمت .

٦٢- فى مختار الصحاح للرازى : الورطة : الهلاك وفى الحديث : لاخلاط ولاوراط .

٦٣ - المغنى ل ابن قدامة - المجلد السابع - ص ٥٢١ - طبعة دار الغد العربى بمصر - سابق .

٦٤ - المغنى ابن قدامة المجلد الأول ص ١٧١ طبعة دار الغد العربى بمصر سابق .

٦٥ - وراثة المسجد فى الإسلام لوظائف المسجد الحرام ودار الندوة قبل الإسلام تحتاج إلى عمل حفرية معرفية من قبل علماء الأنثروبولوچيا الدينية لمعرفة مظاهر الاتفاق والاختلاف .

٦٦ - رواه أبو داود فى سننه .

٦٧ - المغنى ابن قدامة المجلد السابع طبعة دار الغد العربى بمصر مصدر سابق .

٦٨ - الحديث رواه الطبرانى وهو مرسل ورجاله ثقات ، وفى مجمع الزوائد نقلاًعن جمع الجوامع للسيوطى ص ٢٠٩٤ ، ص ٢٠٩٥ طبعة مجمع البحوث الإسلامية مصدر سابق .

٦٩ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة المجلد الأول ص٦٣ سابق .

٧٠ - المحاسن والأضداد للجاحظ فصل : **محاسن التزويج** ص ١٢٩ حققه وقدم له المحامى فوزى عطوى طبعة ١٩٦٩ الشركة اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع .

٧١ - فى **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية / **الفلحاس من الرجال** : القبيح السمج ونضيف أنَّ العامة فى مصر تسميه **الفلحوس** .

٧٢ - **الاستيعاب** ابن عبد البر المجلد الرابع ص ١٤٤٦ مصدر سابق .

٧٣ - كتاب **فتوح البلدان** تأليف أحمد بن يحيى بن جابر ، المعروف ب البلاذرى القسم الثانى ص ٤٢٣ / ٢٢٤ وضع ملاحقه د . صلاح الدين المنجدَ د . ت . ن مكتبة النهضة المصرية .

٧٤ - **أسد الغابة** المجلد الثانى ص٥٠٣ مصدر سابق .

٧٥ - **الاستيعاب فى معرفة الصحاب** الجزء الرابع ص ٦١٥- مصدر سابق .

٧٦ - المصدر نفسه الجزء الثانى ص ٥٢٤ مصدر سابق .

٧٧ - نفس المصدر ونفس الجزء ونفس الصفحة .

٧٨ - فى المعجم الوسيط **ماع الجسم** : ذاب وسال ، وماع السائل : جرى على وجه الأرض ، وماع السراب : تموج على الأرض منبسطاً فى هينة .

٧٩ - **الاستيعاب** الجزء الرابع ص ١٦١٥ مصدر سابق .

٨٠ - أورد واقعة عزل عمر لزياد بن عبد البر فى **الاستيعاب** المجلد الثانى ص ٥٢٤ مصدر سابق .

٨١ - **الاستيعاب** الجزء الرابع ص ٤٤١ مصدر سابق .

٨٢ - فى **القاموس المحيط** للفيروز آبادى **عرام الجيش** : حدتهم وشدتهم وكثرتهم وعرم : إشتدّ ، فهو عارم **عرامة** (بالفتح) وعراماً (بالضم) .

٨٣ - روى أبو حفص بإسناده أن عمر بن الخطاب أصدق أم كلثوم إبنة علىّ بن أبى طالب أربعين ألفاً **المغنى** لابن قدامة المقدسى المجلد الثامن ص ٦٣ طبعة الغد العربى بالقاهرة .

٨٤ - رواه ابن عساكر عن عمر وكذا الطبرانى . وأورده السيوطى فى **جمع الجوامع** الجزء الثالث العدد ٢ ص ٢٢٨ مجمع البحوث الإسلامية بمصر .

٨٥ - **المغنى** ابن قدامة المجلد السابع ص ٥١٩ مصدر سابق .

٨٦ - فى القاموس المحيط للفيروز آبادى **الخدلّجة** مشددة اللام : المرأة الممتلئة الذراعين والساقين .

٨٧ – **أسد الغابة** المجلد الثانى ص ٤١٥ مصدر سابق .

٨٨ – **السيرة النبوية** ابن هشام الجزء الثالث ص ١٥٥ مصدر سابق .

٨٩ – **الخدم** فى معاجم اللغة هى السوق : جمع ساق ، وخدم أو خدام المخدرات أى سوق المقصورات فى البيوت ويضرب مثلاً للشىء المستور المصون ، وفى **القاموس المحيط** للفيروز آبادى / **الخدم والمخدمة** : رباط السراويل عند أسفل رجل المرأة وكذا أيضاً موضع الخلخال و فى أحيان هى الخلخال نفسه .

٩٠ – **الاستيعاب** المجلد الثانى ص ٤٢٠ مصدر سابق .

٩١ – أورده البخارى ومسلم فى **الصحيحين** ، والبيهقى فى **السنن الصغرى** المجلد الأول ص ٣٨٨ والسيوطى فى **جمع الجوامع** الجزء الرابع العدد الرابع والعشرون ص ٢٩١٦ – وابن قدامة المقدسى فى **المغنى** المجلد الرابع ص ٤٩ وفى المجلد السابع ص ٥٢٩ دار الغد العربى بمصر .

٩٢ – أورده البخارى ومسلم فى **الصحيحين** ، والبيهقى فى **السنن الصغرى** .

٩٣ – **بصبص** السبع إلى فلان : لمع ببصره **المعجم الكبير** لمجمع اللغة العربية الجزء الثانى حرف الباء الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م وفى **القاموس المحيط** للفيروز آبادى البصباصة العين .

٩٤ – **الجامع الصحيح مسند الربيع بن حبيب البصرى** جـ ٢ ص ٧٤ – مصدر سابق .

وأورده الطبرانى فى **المعجم الكبير** برواية عبد الله بن محمد الحنفية عن أبيه . نقلاً عن السيوطى فى **الجامع الكبير أو جمع الجوامع** – الجزء الرابع العدد / ١٩ – ص ٢٣٢٥ .

٩٥ – المصدر نفسه .

٩٦ – **كتاب الخراج** لقاضى القضاة أبى يوسف ص ١٧٧ الطبعة الخامسة ١٣٩٦ هـ طبعة المكتبة السلفية بمصر .

٩٧ – **سنن أبى داود** الجزء الثانى ص ٢٤٢ مصدر سابق .

٩٨ – **الشرح الكبير** شمس الدين بن قدامه المقدسى على هامش **المغنى** المجلد ٨ ص ١٥٧ .

٩٩ – **سنن ابن ماجه** المجلد الأول ص ٦٩٩ .

١٠٠ – الآية ٤ من **سورة النور** .

١٠١ – **أسباب النزول** للواحدى ص ٢١٢ ، ص ٢١٣ مصدر سابق .

١٠٢- أورده ابن عبد البر فى **الاستيعاب** فى ترجمة هلال بن أمية مجلد ٤ ص ١٥٤٢ مصدر سابق .

١٠٣ - كما أورده ابن الأثير فى **أسد الغابة** فى ترجمة شريك بن سحماء - ص ٥٢٣ من المجلد ٢ مصدر سابق .

١٠٤ - أخرجه البخارى ومسلم فى **الصحيحين** ومالك فى **الموطأ** فى كتاب الطلاق بروايتين وابن عبد البر فى **الاستيعاب** فى ترجمة عويمر المجلد الثالث ص ١٢٢٦ مصدر سابق . وعز الدين بن الأثير فى **أسد الغابة** فى ترجمة عويمر أيضاً المجلد الرابع ص ٣١٧ مصدر سابق ، وذكره السيوطى فى **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** الجزء ٣ العدد ١٠ مصدر سابق .

١٠٥ - كتاب **أسباب النزول** للسيوطى ص ١٢٣ الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ كتاب التحرير بمصر .

١٠٦ - انظر على سبيل المثال فى كتب الفقه : **المغنى** ابن قدامة المجلد التاسع من ص ٣٠ حتى ص ٨٨ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٥ م دار الغد العربى بمصر .

١٠٧ - **تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن** القرطبى ص ٣١٢٤ طبعة كتاب الشعب بمصر .

١٠٨ - **الاستيعاب** ابن عبد البر المجلد الثانى ص ٧٠٥ مصدر سابق .

١٠٩ - نفس المصدر ونفس الصفحة .

١١٠ - **أسد الغابة** عز الدين الأثير المجلد الثانى ص ٥٢٢ .

١١١ - **السيرة النبوية** ابن هشام تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد ص ٢٣٣ من الجزء الرابع نشر : مكتبه شقرون بمصر مصدر سابق .

١١٢ - المصدر نفسه ص ٨٨ .

١١٣ - **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية** خليل عبد الكريم الطبعة الأولى ١٩٩٢ م دار سينا للنشر القاهرة .

١١٤ - كتاب **السير الكبير** للإمام محمد حسن الشيبانى بشرح الإمام السرخس تمهيد وتعليق الشيخ محمد أبى زهرة تحقيق مصطفى زيد الجزء الأول ص ١٤٨ الطبعة الأولى ١٩٥٨ مطبعة جامعة القاهرة .

١١٥ - المصدر نفسه ص ١٤٩ .

١١٦ - أورد السيوطى فى **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** الجزء الثالث العدد الخامس

والعشرون ص ٣١٠٣ من إصدارات مجمع البحوث الإسلامية بمصر .

١١٧ - أورده السيوطى رواية مماثلة عن أبى قتادة وقال : إنه ورد فى مسند أحمد وفى المعجم الكبير للطبرانى وفى الترغيب والترهيب للمنذرى وفى كنز العمال وفى فيض القدير . جمع الجوامع العدد ١٧ الجزء الرابع ص ٢١١٤ مصدر سابق .

١١٨ - المصدر السابق نفس الجزء ص ١٤٧ .

١١٩ - رواه البخارى فى الصحيح عن جابر بن عبد الله . جمع الجوامع أو الجامع الكبير السيوطى الجزء الأول ص ٥٤١ مصدر سابق .

١٢٠ - فى المعجم الوسيط نتف الشعر نتفاً : نزعه ونتشه نتشاً .

١٢١ - جمع الجوامع للسيوطى الجزء الأول ص ٤١٢ مصدر سابق .

١٢٢ - المغنى ابن قدامة المجلد الثامن ص ١٨٣ مصدر سابق .

١٢٣ - الشرح الكبير شمس الدين عبد الرحمن المقدسى على هامش المغنى المجلد الثامن ص ص ١٩٤ ، ١٩٥ مصدر سابق .

١٢٤ - أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه والبيهقى فى السنن . نقلاً عن كتاب حياة الصحابة للكاندهلَوى المجلد الثانى ص ٥٣ الطبعة الثانية ١٣٢٩٩ هـ ١٩٧٩ م الناشر : دار الوعى حلب .

١٢٥ - بائخة أى فاترة ، ساكنة ، منطفئة ، وفى المعجم الكبير لمجمع اللغة العربية الجزء الثانى حرف الباء الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر - باخت النار سكنت ، فترت ، إنطفأت .

مجتمع يثرب

العلاقة بين الرجل و المرأة
في العهدين المحمدي والخليفي

هذا الكتاب يضيء جانبا مهما في مجتمع
يثرب إبان حياة الرسول محمدُ وزمن خلفائه الأربعة .
والذي فجر ثورة في منطقة الحجاز تعد من أخطر الثورات التي
شهدتها الإنسانية منذ العصور الوسطى .
ويحاول المؤلف خليل عبد الكريم أن يكشف جانبا مهما من العلاقة بين الرجل
والمرأة في ذلك المجتمع ، والتي تعتبر المقياس الأساسي عند تقييم أي مجتمع .
في هذا الكتاب ما يدهش القارئ وربما يصدمه بما تحفل به صفحاته من نوازل
وأحداث لم يتعود على مطالعتها في كتب التبجيل والتعظيم التي ولفها
الكثيرون ومن بينهم أسماء لامعة لها رنين صاخب ودوي زاعق وهي
معروضة بالأسلوب العلمي الصارم الذي نحى عنه جانبا ،
عوارض العاطفة والتعصب